متاهات التفسير

فى ضوء الكتاب المقدس

بقلم
القس صموئيل مشرقى
رئيس مجمع اللّه الخمسينى

الكتاب التاسع والاربعون

متاهات النفس

في ضوء الكتاب المقدس

بقلم

القس صموئيل مشرقي

رئيس مجمع النيل الإنجيلي

صدر بالقاهرة بجمهورية مصر العربية

رقم الإيداع بدار الكتب ٣٣٢٤ / ١٩٨١

مطبعة الأمانة
٣ شارع جزيرة بدران شبرا - مصر

كلمة تصدير

هذه هى الحلقة الختامية من حلقات الدراسات التى قدمتها « كنيسة الله الخمسينية » بجزيرة بدران حول الكتاب المقدس ، مبتدئة حلقتها الأولى بافتتاحية سلسلة الإلهيات بعنوان : « فكرة عن الكتاب المقدس » ، وتلاها كتاب « مصادر الكتاب المقدس » ، رداً على مدارس النقد العصرية وواضع كتاب « التوراة الهيروغلوفية (أى الفرعونية) » ، ثم كتاب : « المسيحية بين الكتاب المقدس والتقليد » لمجابهة التقليد الذى يهزأ بالحق الكتابى ، ومن بعدها كتاب : « عصمة الكتاب المقدس واستحالة تحريفه » ، وهو رد مفحم على أدعياء التحريف فى الشرق أو الغرب على السواء ، وكتاب : « الكتاب المقدس يتحدى مشاكل الاعتراضات » ، وهو الرد السديد على الزعم بالمتناقضات التى يختلقها بعضهم ضد كتاب الله !

وها نحن نقدم هذه الحلقة الأخيرة التى وعدنا بها لإتمام هذه الحلقات المباركة لمعاونة من يريدون الحصول على التفسير الصحيح والوقوف عند حده وخاصة بعد أن تفشى الجهل لا بالعقيدة المسيحية فحسب بل ربما بمحتويات الكتاب نفسه ، ومن ثم فلم تعد مفاهيم الحق القديمة ميسورة ، ولم تعد هناك غير قلة يسيرة قادرة على التفريق بين ما هو كتابى ، وغير كتابى مما أشاع التخبط ما بين التقليد واللاهوت العصرى !

القواعد السليمة للتفسير

منذ أن تعارف الناس على استعمال اللغة كوسيلة للتخاطب وقد أصبحت قوانين التفسير ولا زالت مسألة مهمة وحيوية ، لأن كل فرد إنما هو مفسر لما يسمعه ويخاطب به ، ومرجع ذلك إلى طبيعة البشر العاقلة ذات الاتصال المتبادل ... على أن ذلك لم يمنع وجود طرق غيبية وضالة فى التفسير لدى الذين يتمسكون بالتفسير الرمزى أو الحرفى أو الشخصى دون التفسير العلمى أو العام ، ومن الجهة الاخرى فإن التعصبات قد قادت إلى ادعاءات مضادة للحق الكتابى مما أدى إلى وجود طرق من التفسير تحرف وأحيانا تناقض الحقائق الواضحة للكتاب !

فكان لا بد من ظهور « التفسير الدفاعى التقريرى » وهو الذى يقوم على أساس الدفاع عن سلطة وصدق نصوص الكتاب المقدس وقانونيتها وتقريرها على النحو الذى جاءت فيه بدون تدعيم أية نظرية معينة فى شأنها — على أن ذلك ليس من الممكن أن يتم إلا باتباع نمط نزيه من التفكير واستخدام منطق سليم مقنع يكون أساسه ثابتا من الكتاب المقدس مما يمكن التسليم به وتقريره مما لا يجوز الجدل فيه لأنه لا يستند إلى ادعاءات مفروضة تؤدى عادة إلى تحديد معانى العبارات بمفهوم تفرض صحته ويدعى بأنه لا يمكن أن تعنى سواه ، مع أنها لن تكون مدعاة للثقة لدى الذين يريدون أن يفكروا لانفسهم تفكيرا متحرراً معقولا .

ومن ثم فإن أضبط تفسير ليس هو الذى يقتبس آية أو جزءا من آية ويفسرها حرفيا تفسيراً قد يتعارض مع معناها الحقيق الذى يظهر عند ربطها بالأجزاء الاخرى المرتبطة بها متجاهلا ما قيل من : « أن الآية

خارج موضعها قد تؤدى إلى عكس معناها ، بل هو التفسير الذى لا يتجنب معنى الآيات الواضحة بتلك التى تعتبر أقل وضوحا ، لأن الحق لا يمكن أن يتعارض ، بل لا بد من موازنة عناصره وأجزائه مما يؤدى إلى أن الكتاب المقدس — إذا أردنا تفسيره الصحيح — نجده يفسر نفسه بنفسه ، فيتضح معناه عند مقابلة أجزائه ، أو من ملاحظة القرائن ، فيظهر بذلك التفسير الموافق لوحدة المعنى .

وبذلك يتم تشكيل العقائد سليمة وفقا للتعليم المستقيم المعلنة صورته فى الكتاب المقدس بأكمله — بعيداً عن « التفسير العازل » الذى يستند إلى آية واحدة أو جزء منها بعد فصلها وعزلها عن القرينة التى جاءت فيها ، وعن المعنى العام للكتاب كله — والذى يتوخى مثل هذا التفسير يلتزم بجمع كل النصوص التى تتعلق بموضوع بحثه ، والوقوف على مدلولها ومعناها ، بنزاهة تامة وبغير تحيز ، فيلم بالموضوع من جميع النواحى لا من زاوية واحدة فقط ، وبذلك لا يقيد المعنى ولا يحصره فى نطاق « التفسير الخاص » .

هذا هو طريق احترام الحق المعلن لنا فى كلمة الله على الصورة التى أعطاها الله ، وعلى الصفة والكيفية التى قدمها إلينا ، كإقرار بما يليق بالسلطة الإلهية التى هى مصدر إعلانه وتقديمه . ومن ثم فلا مكان للدفاع عن أية عقيدة إلا فيما يستند تماما إلى أقوال الوحى وينسجم مع مفهومها تماما ...

وهذا يؤدى بالطبع إلى منع فرض العقائد المذهبية أو الخاصة على الكتاب المقدس ، بل يجب إخضاعها وعدم الاقرار بصحة أية عقيدة قبل امتحانها بالكتاب المقدس ، لأن الحكم فى ذلك إنما يرجع أولا وأخيراً لنصوص الكتاب المقدس نفسها دون حاجة إلى أية إضافات — أيا كان نوعها — أو مصدرها مهما حاول معتنقوها أن ينسبوا إليها نفس سلطة الكتاب

أو يقدسوها تقديسهم للكتاب المقدس ، رغم الفرق الشاسع بين هذه الاضافات وبين الكتاب ، وتناقض ما تحتويه مع نصوص الوحى .

° ° °

وتنحصر قواعد التفسير الصحيح إذاً فى اكتشاف المعنى الدقيق الذى يقصده كتبة الوحى وذلك من الكتب المقدسة نفسها بتطبيق القواعد اللغوية ومبادىء التفكير السليم عليها ، بفرض أنه لا يوجد كاتب معقول — وبالاولى كتبة الوحى — يريد عن علم أن يكون متناقضا مع نفسه أو غيره ، فيسعى لوضع قرائه فى حيرة أو ضلال بتعريضهم لمتاهات التفسير .

ومن جهة أخرى لما كان الكتاب المقدس كله موحى به من الله فإن كل جزء فيه يجب أن يكون موافقاً للآخر كل الموافقة ، حتى إنه لا يجوز تفسير آية على طريقة تضاد تعاليم بقية الآيات ، كما لا يجوز اعتبار جزء من التعليم بأن له الأهمية القصوى وترك الباقى ، وهذا أمر بديهى لكل ذى عقل سليم ، لأن كمال الاعلان الإلهى هو الكتاب كله !

وعلى ذلك يجب تفسير الكتاب المقدس بمقابلة أقواله بعضها ببعض ، حتى نستخرج نظام الايمان وقوانين الحياة بكاملها ، كما هى فى صفحات الوحى — فان التهاون فى هذه المقابلة يجعل النظر إلى الحق الإلهى نظراً جزئياً معوجا ، فيخرج الكلمات عن معانيها ويحملها ما لا طاقة لها على حمله ، فى حين أن التفسير الصحيح يتطلب أن يكون فى أسلوب مفهوم ومألوف يتيسر إدراكه ، ومن ثم وجب الاجتهاد فى البحث عن أقرب معنى تقصده أية عبارة من كلمة الله ، وهذا يتطلب مطالعة الكتاب المقدس كله بطريقة المقارنة ومعرفة معانى الاصطلاحات الواردة به وأساليب

التعبير لتوضيح الأمور التى تبدو صعبة فى البداءة ، وخاصة لدى غير الملمين أو المتعمقين فى الكتاب .

ولا شك أن عدم معرفة ما تقدم يقود إلى خطأ فى التفسير ، كما ينشأ خطر التفسير أيضا عن عدم مراعاة قرينة الآية كما سبق البيان — وقد يأتى هذا الخطأ كذلك بسبب التغلغل فى استعمال المجاز والاستعارة فى التفسير كما فعل أوريجانوس المصرى أب التفسير المجازى فى القرن الثالث الميلادى ، الذى تغلغل فى هذا الاتجاه حتى قضى على المعنى الحرفى المستفاد من النص ، بل والروحى أيضا ، الذى يمكن أن يستنبط منه ويتمشى معه بدون شطط ...

نستخلص من كل ذلك أن أهم القواعد السليمة للتفسير هى اتفاقه مع المعنى العام وعدم مناقضته للتعاليم الكتابية لأن هذه التعاليم لا تناقض بعضها ، لكنها على وفاق وتماثل مع بعضها . والرجوع إلى الشواهد يساعد كثيراً على تطبيق القواعد المذكورة آنفا ...

والذى يجب أن نعلمه هنا أن « احتكار » تفسير الكتاب المقدس ليس وقفا على فئة معينة أياكانت ادعاءاتها ، ومهما حاولت أن تتحكم فى كلمة الله بتفسيرها فى ضوء عقائدها الخاصة وتحريف معانيها لتناسب تلك العقائد وذلك لإعلاء شأنها واعتبارها واجبة الصحة وفرضها فرضا مطلقا يتحدى منطق البحث والمعقول ، فهذا أمر باطل أياكانت السلطة البشرية التى تسانده لأن الحكم فى صحة العقائد وتقريرها إنما يكون بامتحانها وفقا للمفهوم الصحيح لنصوص الكتاب المقدس نفسها وهذا يستلزم الاخلاص التام غير المشوب بالتحيز أو التعصب وهو برهان الذهن المفتوح المتحرر ودليله !

منشأ متاهات التفسير

عندما ظهرت المسيحية قررت عن طريق آبائها ومجامعها قبول العهد القديم الذى ورثته عن اليهودية واعتباره نصف كتابها المقدس ، وعلى هذا الأساس بدأ فحصها للأناجيل وامتحانها لرسائل العهد الجديد ، واعتماد ماثبتت قانونيته منها لضمه إلى العهد القديم تباعاً ، واكتمال الكتاب المقدس به !

وقد التزمت الكنيسة منذ البداية بالنصوص ، فقدستها ، وكان اهتمامها البالغ ، إنما بالمفهوم الواضح المباشر لها ، إلى أن ظهرت طغمة الإكليروس فى شكل رئاسات دينية تعلو عن الشعب وأفراد المؤمنين العاديين . وتعزز سلطانها باعتناق قسطنطين للمسيحية وإعلانه لها دينا رسمياً للدولة الرومانية !

كان لابد من وراء ذلك أن ينفتح الباب فى المسيحية لقبول الآراء البشرية التى سرعان ماتحولت إلى «تقاليد دخيلة» ترسبت فى الكنائس القديمة فتمسكت بها مع أنها أقوال بشر ، واتسع نطاقها مع الزمن وترسخت ، فأضفوا عليها سلطانا إلهيا كسلطان الكتاب المقدس نفسه وتم وضعها فى إطار النظم الكنسية التى لاتقبل المناقشة ... ولاعبرة هنا بأسماء من قاموا بذلك سواء كانوا قادة دينيين مثل كبريانوس مثلا أو ملوكا أباطرة مثل قسطنطين ، فإن المعول عليه فى الأمر هو دخول الآراء البشرية وتحديها لكلمة الله بشكل أو بآخر ، مما أدى إلى تحول «الكنيسة» عن إسمها الكتابى الموحد وهو «كنيسة الله» ، وكذلك ابتعادها تدريجياً عن الحق الكتابى ، عندما أخذ التقليد يترسب داخلها بشكليه العملى والنظرى : فالعملى يتمثل فى شكل المبانى (بناء الكاتدرائيات الفخمة وإعادة مايشابه النظام اليهودى إليها مع مايرتبط بذلك من ممارسات) ؛ والنظرى يتمثل فى التفسيرات والشروح وتقديس أقوال قادة الكنيسة وآبائها كتقديس

أقوال الكتاب المقدس وإعطائها نفس المكانة والمنزلة دون تفكير فى العواقب!

وبعد أن كانت الكنائس تتكاثر متمتعة بالاستقلال الذاتى بغير تحكم من أية سيادة ، وذلك خلال عصر الرسل وعصر الاستشهاد الذى تلاه ، نجد أن الأمر بدأ يختلف تماما منذ إقرار قسطنطين المسيحية دينا رسميا للدولة ، ودخول الأوضاع الوثنية السابقة إلى كيان هذه الديانة الجديدة ، وسريانها فى شرايينها حتى أصبحت مختلطة تماماً بدمائها النقية الذكية ، التى كانت لها من منابع النشأة الصافية ، عندما تأسست الكنيسة وجمعت كتابات العهد الجديد وأكملت بها الكتاب المقدس ، الذى جعلته دستورا أبديا لها ، وتمسكت به دون زيادة أو حذف .

أما لماذا حدث ذلك التحول ؟ فواضح أن ذلك قد تم كعمل سياسى بالنسبة لقسطنطين لربط أجزاء الدولة الرومانية بدين متوافق يجمع بين ماكان لها سابقا ويربطه بالمسيحية فى شكلها الجديد ، بعد أن تم اقترانها بالدولة ، ومن جهة أخرى فإن رجال الإكليروس بالطبع قد وجدوا الفرصة متاحة لتعزيز سلطانهم الذى ابتدعوه ، وإكسابه الصفة الرسمية النهائية .

وليس معنى ذلك أنه لم يكن هناك أية معارضة لهذا التحول ، ولكن حيث إنه استند لسلطان الدولة ، فلم يكن بالإمكان إحداث الاعتراض الذى يكون له فاعلية الصد والإيقاف لمد هذا التيار الجارف ، لذلك دخلت الكنيسة فى العصور المظلمة تاريخيا وبقى أفراد الأمناء من محبى الحق متمسكين به هنا وهناك استبقاء لشهادة دائمة لحق الله مهما خبا نورها وضعف إلى أن جاء عصر الإصلاح الإنجيلى وبلغ بنا الموقف اليوم إلى إثارة الرغبة الصادقة فى استرداد الوضع الأصلى الذى كانت تتميز به الكنيسة الأولى فى عصر الرسل والشهداء .

• •

وبعد أن عادت للظهور « العبادة بالروح والحق » ، وانتشرت حقيقة

المواهب الروحية فى أرجاء العالم ، وأخذت « المسيحية الإنجيلية » تتمسك بالكتاب المقدس وحده ، حتى أنهم أطلقوا على كنائسها « الكنائس الكتابية » ، إلا أن بعضهم يحاول طمس هذه الحقيقة والادعاء بأن جميع الطوائف - بدون استثناء - لها تقليدها ولها طقوسها وكتب صلواتها ، مع مافى ذلك من مجافاة للحقيقة الواقعة ، إذ من المستحيل أن حرية الروح المقترنة بالحق الواضح باعتبارها سمة العهد الجديد ، هما والوضع التقليدى الثابت المتكرر شيء واحد بعينه ؛ إذ أن الفرق بينهما غير خاف لمن له أى قدر من التأمل النزيه غير المتحيز .

وقد بلغ التطرف أقصاه عند البعض فاعتبروا أن « الإيمان المسلم مرة للقديسين » إنما هو بعينه مايسمى بالتقليد الرسولى الذى تسلمته على حد قولهم الكنيسة من الآباء والرسل وحافظت عليه بدم الشهداء عبر الأجيال ، مع أن أبسط وأصدق مفهوم لذلك الإيمان إنما هو « الحق الكتابى » وحده فحسب ، الذى يحتويه الكتاب المقدس بين دفتيه ، دون أن يحتاج ذلك إلى دليل ، لأن النص يطلب منا الاجتهاد لأجل هذا الايمان ؛ معلناً احتواءه على الخلاص المشترك ، الذى يستحيل أن يوجد فى غير كلمة الله ، وهو يبتعد كثيراً عما يخالفها .

فالإيمان المسلم مرة للقديسين — ليس هو التقليد الرسولى أو الكنسى ، الذى قد يوجد عند الفحص مخالفا لكلمة الله — بل هو فى الواقع حق الكتاب المقدس الذى يحتوى على أقوال الرسل والأنبياء ، ويسوع المسيح نفسه حجر زاويته ، والذى وجد فى كل العصور من دافعوا عنه بحياتهم ، بل قد اختلط ذلك الايمان لدى البعض منهم بدمائهم لأنه حق الله الأبدى غير المتغير .

وهذا ينفى الزعم بأن هذا الإيمان هو إيمان كنيسة معينة بالذات ككنيسة

روما أو الاسكندرية أو غيرهما ، بحسبان أن تلك هى رائدة العالم المسيحى اليوم ، وهذه كانت قائدة العالم المسيحى فى القرون الأولى ، وأما هذا الايمان المفروض فى حقيقته فإنما هو الانجيل ، وما عداه يكون أنجيل آخر ، لأن الانجيل الصحيح باق كما هو تحتويه صفحات العهد الجديد وحدها ، وهو الذى يقود الناس إلى الطبيعة الحقيقية لخلاص الله ، وليس كالإنجيل المختلط بالتقليد ، وهو إنجيل غريب وسطحى جداً بالنسبة للخلاص ! وهو بعيد تماما عن الأصل الذى لم يتغير جوهره قط ، والمقدم للإيمان الشخصى لا الايمان الذى ينتسب للآباء والأجداد بدون تخصيص أو فاعلية فى صاحبه ، وهو ملىء بالمتناقضات ومتاهات التفسير ! رغم ادعاء أصحابه عدم اعتبار كنيستهم مجرد طائفة ، وإنما هى « كنيسة الله — الكنيسة الجامعة المقدسة الرسولية » ، وهو الوصف الدقيق الصحيح الذى لا يمكن أن ينطبق إلا على « الكنيسة الحقيقية » التى تجمع « المؤمنين الحقيقيين » الذين يتمسكون بتعاليم رسل ربنا يسوع المسيح المتضمنة فى العهد الجديد ، وهم مقدسون بالروح القدس ، وهذه « الكنيسة الحقيقية » التى هذه أوصافها موجودة فى داخل « الكنيسة الاسمية » التى تشمل العالم المسيحى بأسره !.

وأخيراً قد طلع علينا البعض بأن « الإنجيل » نفسه قد خرج من « التقليد » باعتبار أنه كان شفهيا فى البداية قبل أن يكتب ، لأن التقليد هو مايتم نقله بين الناس من السلف إلى الخلف ، وإنه لذلك قاعدة الكلمة المكتوبة ، الأمر الذى يرون معه استحالة الفصل بينهما ، لأن القاعدة أى التقليد فى نظرهم هو حياة الكنيسة كلها ، والفصل بينهما لابد وأن يؤدى إلى الخطأ ، لأن الحياة تسليم وحفظ وتوارث كما يقولون ، وهم يقابلون ذلك باتهامنا بأننا نعتبر تفسيرات الناس لكلمة الله على أنها كلمة الله ، محاولين بذلك الجمع بين الخطأين المرفوضين من الكتابيين إذ لا يعتبر الكتابى كتابيا بحق إلا إذا تمسك بكتاب

الله ونصوصه بحد ذاتها ، وهى تتكلم عن نفسها وتفرض ماتحويه من حق بسلطانها ، وإن كان لابأس من محاولة الانتفاع بالتفاسير ولكننا لم ولن نعتبرها كلمة الله بعينها ، وعلى نفس النمط نقول إن الإنجيل وإن كان قد بدأ شفهيا لكنه وقد تم تدوينه وكتابته أصبح الحق النهائى المطلق الواجب التسليم الذى لاارتباط بينه وبين التقليد الحالى وخاصة وقد ثبت من مراجعته أنه وإن كان اقتداء بالكتاب المقدس قد اضطر أصحابه إلى تدوينه واعتباره مصدراً للوحى كالكتاب بعد أن كان مجرد منطوقات شفوية ؛ مكسبين إياه بذلك سلطة وحى الكتاب المقدس إلا أنه شتان بين الوحى الصرف الذى لاتخالطه شائبة وبين التقليد ، حتى بعد أن أصبح مكتوبا ، إذ وجدناه يحتوى على الكثير من الأخطاء المتنوعة والمخالفة لكلمة الله !

ولذلك فليس هناك من سبيل لاتقاء هذه المخاطر بأنواعها سوى التمسك بصورة الكلام الصحيح حسبما جاء فى الكتاب المقدس وحده !

هذا هو الطريق السليم الوحيد لاستخلاص حقائق الكتاب المقدس بدقة والتأكد منها بيقين تام خال من أية شائبة وذلك على أساس الدراسة الواعية الشاملة لمضمونه الكامل دون حاجة إلى أية إضافات ينسب إليها نفس سلطة الكتاب المقدس سواء كانت تحمل تسمية «التقليد الرسولى» أو «التقليد الآبائى» إذ مهما يكن تقديرنا لكتابات الآباء وما نسبته الكنيسة للرسل خارج رسائلهم المدونة فى العهد الجديد وبفرض صحة هذه كلها رغم أنها ليست كذلك فى مجموعها إلا أنها لن تصل إلى مستوى الكتاب المقدس الذى يقدسه المسيحيون عامة وهو محور الطاعة والولاء من المؤمنين الحقيقيين عارفى الحق !

تقديس الوسائط وعبادتها

يكشف لنا سفر الملوك الثانى الاصحاح الثامن عشر عن حركة الإصلاح التى قام بها حزقيا الملك ، وقد توجها بسحق الحيه النحاسية — « ... حية النحاس التى عملها موسى لأن بنى إسرائيل كانوا إلى تلك الأيام يوقدون لها ودعوها نحشتان » (ع ٤)

ولنا وقفة هنا لتحليل هذه الحادثة ومتابعة مدلولاتها عبر التاريخ وهى تكشف لنا بدامة عن إمكانية تقديس الوسائط وعبادتها . فقد جاء الوقت الذى بدأ فيه الشعب القديم عبادة الحية النحاسية : جعلوها موضوع عبادتهم مما دعا حزقيا إلى تحطيمها لأنها فى حد ذاتها ، نحشتان — أى حية من نحاس لكن التقليد اليهودى أعرض عن الوحى المعلن فيه قصد الله واتخذ منها إلهاً معبوداً مثبتا ميل التقليدى بطبعه إلى استبدال الله بترتيب الله . ولا شك أن القلب البشرى متى حاد عن حق الله فلا حد لضلاله إذ قد يصل به ذلك إلى أضل عبادة صنمية — فلا تبقى الفريضة بعد فريضة إلهيه بل تتحول إلى خدعة شيطانية ، وذلك لأن الفرائض فى نظر التقليدى هى أهم الأشياء ، بينما يكون الله بعيداً عن الفكر واسم الله عنده يتخذه آلة لرفع شأن الفريضة ، لينشغف بها القلب البشرى ويكون لها تأثير على الذهن .

ومما لا جدال فيه أن الاحتفاظ بالحية النحاسية كقطعة أثرية ملحوظة ، كان فى البداية موضوع سرور وتسلية ومحور تعليم عن صلاح الله ورحمته نحو الإسرائيليين ، عندما لدغتهم الحيات المحرقة فى البرية ، ولكن عبادتهم لها فيما بعد — وهى عبادة من أشنع العبادات — كان الدليل على ازديادهم

فى الانحطاط وتحولهم إلى الوثنية ، الأمر الذى كان يستلزم فعلا ما قام به حزقيا من تحطيم لها وسحقها ...

° ° °

لأن هذه الحية وقد تحولت عن وضعها الأصلى أصبحت آلة فى يد الشيطان

إذ كان بنو إسرائيل يوقدون (أى يبخرون) لها إلى تلك الأيام . والواقع أنه ليس من المفترض أن مثل هذا الاحترام الخرافى قد نشأ فى عصر موسى ورغم احتمال حدوث سوء فهم للغة موسى الواردة فى سفر العدد ٢١ : ٨ بشأنها بإثباته أن الرب قد قال له : « اصنع لك حية محرقة وضعها على راية فكل من لدغ ونظر إليها يحيا »

على أنه مهما كان الأمر من جهة منشأ عبادتها ، فإن هذه العبادة تدل فى حد ذاتها على تقديرات التقليد القائمة على سوء فهم وسوء تفسير لمعنى الفرائض لتحويلها إلى ما يؤدى لربط الخلاص بها ووضعه فيها . أما فيما يختص بالحية النحاسية فمن المستبعد أن تكون عبادتها قد بدأت فى عهد موسى وهو الذى سحق لبنى إسرائيل العجل وسقاهم غباره عندما عبدوه ... وأيضا ليس من المحتمل أن تكون نشأة هذه العبادة أيام داود أو سليمان ولا أيضا فى عصر آسا ويهوشافاط ، لأنهم لم يكونوا ليرضوا بمثل هذه الغباوة ... ولكن المرجح جداً أن إدخال تلك الخرافة بدأ فى عصر آخاب — أب العبادة المزدوجة — تحت التأثير الردىء لزوجته الوثنية إيزابل ، التى فتحت الطريق لكل أنواع الوثنيه متمثلة فى أنبيـــاء البعل أنبياء السوارى — وهذا يشبه ارتباط قسطنطين بالمسيحية ، مع أنه منع اضطهادها حتى اعتبر عهده «العصر الذهبى» للمسيحية ، لكنه مزجها بالوثنية فتمجدت المظاهر والفرائض وأخذت مكان الحق وشكله .

إن ما حدث بالنسبة للحية النحاسية يظهر ميل القلب البشرى نحو الوثنية:

وكيف أن أشياء كثيرة مما يقبل الإنسان الالتصاق بها والاستمرار فيها بطريقة جسدية تبقى مخفية وسط الكثير من البركات والمعاملات الإلهية. هذا يعلمنا أيضاً كم هو قريب لقلوب البشر عندما تذكر البركة أنهم يتعبدون لرموزها ويجعلونها أصناماً لهم. مع أن الإيمان يتخلص من هذه الأشياء، لأن الله قد أعطى الحية النحاسية لا لتكون علامة تذكار بعد العلاج، بل لتكون للعلاج نفسه.. ومع أنهم قد أحتفظوا بها بحكم الميل الطبيعى لتقديس الوسائط، رغم أن ذلك لم يكن من الله، ومن ثم فإنها سرعان ما أصبحت آلة فى يد الشيطان بجعلها فخاً وثنياً لاصطياد من يعبدونها .. ورغم ما فى ذلك من عصيان، إلا أن قبوله كان سهلا فى إسرائيل، ورغم أنهم كانوا شعب الله حينئذ، إلا أنهم تشبهوا بالأمم المجاورة كالمصريين والفينيقيين، ممن كانوا يشكلون ويزينون آلهة صنمية ضمن أمتعتهم فى شكل حيات، وكانوا يعتبرونها رمزا للصحة والخلود — وإننا نشاهد آثار ذلك حتى الآن، فإن الصيدليات قد اتخذت من توجيه فم الحية نحو كأس الدواء عنوانا للشفاء، بل يبدو واضحا شدة ارتباط حواء بالحية فى شكل الأساور التى يلبسها بناتها على شكل حيات فيا للعجب!

ومن ثم فإن سحق الحية النحاسية فى ضوء ذلك يعتبر بلا شك عملا من أروع أعمال البطولة التى قام بها حزقيا (ومعنى اسمه قوة (يهوه) الرب) فإن إتمام مثل هذا العمل يتطلب شجاعة وعزماً غير قليلين لدى من ينظر إلى مصالح الديانة الحقيقية التى تتطلبه، فإن حزقيا بأخذه تلك الخطوة الجريئة نظر إلى مجد الله وخير شعبه — لقد كان ملكا أمينا وضع كل اتكاله على الرب، وشهادة الوحى عنه أنه: التصق بالرب ولم يحد عنه بل حفظ وصاياه، ولم يكن أحد مثله منذ زمان داود إلى هذا الوقت، ولا من بعد إلى وقت

السبي .. ولذلك أعطاه الرب نجاحا وانتصارا ، ولو أن ذلك لم يستمر بسبب زيغان الشعب وعصيانه ، مما أدى إلى تسليم الرب لهم للسبي الأشورى ، ولكن ذلك لا يحط من كرامة وقيمة العمل الذى أتمه حزقيا !

* * *

ويورد كتاب ريحانة النفوس فى أصل الاعتقادات والطقوس للقس بنيامين شيندر المطبوع سنة ١٨٨٩ (طبعة ثالثة) كيف أن الشعب فى الأزمنة المتأخرة (أواخر القرن الثالث) لم يكتفوا ببساطة عبادة المسيحيين الأولين التى يصفها المحامون (المدافعون) الأولون عن الديانة المسيحية كجستنيان الشهيد (فى احتجاجه الأول فصل ٦و١٠ ، ١٦و٣٢) وارنوبيوس (فى كتابه ضد الوثنيين كتاب ١ ، ٢ ، ٥) بأنها لا هيكل لها ولا مذبح ولا ذبيحة ولا احتفال أعياد وهلم جرا مما يجعل ديانة المسيح أكثر مجدا ورونقا ، مما يراه القلب الجسدى فى الحق الإنجيلى إذا بقى على بساطته ومن ثم حدث فى القرن السادس أن كثيرا من طقوس اليهود والوثنيين التى كانت قد رفضت قديما ، دخلت حينئذ فى الخدمة المسيحية .. حتى إن غريغور يوس الكبير علم صريحا أن أعياد الوثنيين ينبغى أن تتحول إلى أعياد مسيحية ، وأنه يجب على المسيحيين أن يقتدوا بهم فى أمور كثيرة (كتاب ٩ رسالة ٧١)

وبعد أن يسرد تاريخ الأعياد وأصلها وكيفية دخولها فى المسيحية مبينا كيف ظهرت عبادة الملائكة كوسطاء وتحول إكرام الشهداء والرسل إلى ما يشبه العبادة باعتبارهم شفعاء يتشفعون لأجل من هم على الأرض ، وكان القصد من ذلك بنية صالحة نمو التقوى فى الأحياء وليس تقديم العبادة للموتى ولكنه مع تمادى الزمن أصبح عبادة القديسين التى ظهرت فيما بعد بين الكنائس وارتبطت بها عبادة الإيقونات والذخائر ... الخ .

وأما أعياد مريم العذراء وعبادتها فقد احتلت مكان الصدارة إذ رتبوا له حوالى سبعة أعياد ، ومع أن الكتاب المقدس قد تضمن إعلان الإنعام عليها وأنها المباركة فى النساء وهى نفسها تنبأت بأن جميع الأجيال ستطوبها ، إلا أنه لا ينتج من عبارات مثل هذه أنها تكون موضوعاً للعبادة ، ولا يوجد فى كل العهد الجديد آية واحدة تثبت عبادة مثل هذه ولا وجد شيء فى ما عمله الرسل يعطى وجها لذلك . ونحن لا نقول ذلك على سبيل الاحتقار لمريم المباركة لأنها من حيث هى ، والدة ربنا يسوع المسيح وقد تطهرت بالحلول الإلهى ووجدت نعمة عند الرب تستحق منا التكريم ، ولكن تطويبها بذلك ليس هو عبادة كما لا يخفى !

نعم إن العذراء كانت عذراء ومكرمة إلا أنها لم تعط لنا لكى نعبدها ، بل نفسها كانت تعبد الذى ولد منها حسب الجسد ونزل من السماء لأجل خلاصنا ومهما تكن الخدمة التى حسبت بأنها أهلا لها ، وكذلك ما ينسب لغيرها من القديسين والقديسات ، إلا أنه لا يجب أن يستحوذ علينا هذا الضلال القديم حتى نترك الحى (أى الله) ونعبد الأشياء المصنوعة منه كما قيل : « اتقوا وعبدوا المخلوق دون الخالق الذى هو مبارك إلى الأبد » (رومية ١ : ٢٥) وهنا يقول أبيفانيوس :

« ومن ثم لا يجوز تقديم العبادة للملائكة ولا لتلك التى ولدت من حنة التى أعطيت لحنة من يواكيم بواسطه الصلاة باللجاجة ، التى ولدت ولادة لا تختلف عن غيرها ولا تغاير الطبيعة بل كسائر الناس من زرع رجل وأحشاء امرأة ، لأنه لا يمكن أن أحدا يولد على الأرض ضد طبيعة الناس أيا كان ، فيما عدا المسيح ، الذى جعل له وحده فرق وله وحده خضعت الطبيعة ، وهو كخالق وحاكم على المادة جبل طبيعته الناسوتية وجسده المعصوم من العذراء كما سبق أن جبل آدم من الأرض . وهو الله نازلا من السماء والكلمة متخذا

جسدا عن العذراء الطاهرة لا منها حتى تعبد ولاحتى يجعلها إلها ولا لكى نقدم نحن شيئاً لاسمها — فلنكرم مريم ولكن ليعبد الله الآب والإبن والروح القدس ولا يعبد أحد مريم (أنظر بانورماتانوس ضد أرتقه مجلد ٢ كتاب ٣)

أما عبادة الايقونات والصور فقد كانت مرفوضة أولا بشدة من آباء الكنيسة ، ولكن رغم ذلك ازداد الميل نحوها فى القرن الخامس بالتدريج وفى ختام القرن السادس ابتدأ البعض يقبلون الصور ويركعون أمامها ويقدمون لها البخور ويوقدون أمامها الشموع وينتظرون منها عمل عجائب وهلم جرا (مسهيم مجلد ٢ وجه ٤٤) وكان لاونتيوس أسقف نيابولس فى قبرص يدافع عن هذه العادات إزاء تعريف اليهود للمسيحيين بكونهم قد سقطوا فى عبادة الاوثان ، ومن الطرف الآخر قام نيكاسيوس أسقف هيرابولس فى سوريا لمقاومتها قائلا يجب أن لا يظن أحد أنه يكرم المسيح بواسطة صوره ، فإن المسيح يرتضى فقط بالعبادة بالروح والحق (نياندر مجلد ٢ قسم ٢ وجه ٦٣٠ و ٦٣٢) .

ومع ذلك فقد تزايد الميل نحو عبادة الصور خلال القرن السابع والثامن واشتد الخصام حول قبولها ورفضها لمدة نحو ستين سنة انعقد أثناءها مجمعان فى القسطنطينية أحدهما سنة ٧٣٠ والآخر سنة ٧٥٤ وكلاهما حرم استعمال الإيقونات ، ومن ثم أعدم كثير منها وأحرق بالنار ووقع على المدافعين عنها قصاصات مختلفة ، إلا أنه سنة ٧٨٦ فى أيام إيرينا الملكة انعقد مجمع فى نيقية وأثبت عبادة الايقونات وحكم بالقصاص على الذين يحكمون بأن السجود والعبادة يجب تقديمهما لله وحده ، ومن ذلك الوقت فصاعداً أخذت هذه العادة فى الامتداد بين الأكثرين ، إلا أن أهل جرمانيا والأرمن كانوا لم يزالوا يرفضون ذلك حتى القرن الرابع عشر (مسهيم مجلد ٢ وجه ١٠١) .

• •

أما رسم إشارة الصليب وعبادته فيظهر أن هذه العادة بدأت تدخل بين المسيحيين الأولين أيام ترتليانوس الذى توفى سنة ٢٢٠ والأصل فيها أن الكنيسة القديمة كانت تعتبر جدا التعليم العظيم الموجود فى الإنجيل أن الخلاص بجملته إنما هو بدم المسيح المسفوك على الصليب فقط ، وكان هذا التعليم دائما موضوع تأملاتهم ، فإذ كانوا يرغبون أن يكون هذا دائما أمام عيونهم فتشوا عن رمز مناسب يشير إليه ، فاتخذوا إشارة الصليب رمزاً بسيطاً لهذه الغاية ، ولم تكن هذه الإشارة عندهم إلا علامة بسيطة حتى أنهم لم ينسبوا قوة إلى نفس الصليب ولا إلى الإشارة ، بل كانوا يستعملونها واسطة محسوسة يدلون بها على هذه القضية المختصة بالديانة المسيحية ، وهى أن جميع أعمال المسيحيين وكل سلوكهم يجب أن يتقدس بالإيمان بالمصلوب وأن هذا الإيمان هو أقوى الوسائط للغلبة على كل شر ولحفظ الانسان منه ...

وبما أنهم علقوا هذا المعنى عليه تراهم كانوا يستعملون هذه الإشارة مرارا كثيرة جداً فى جميع أعمالهم الاعتيادية أى عند النوم والقيام والأكل واللبس وإضاءة السرج وفى الصلاة ، وبالإجمال فى كل حركة قاصدين أن يدلوا بذلك على أن الديانة الإنجيلية يجب أن تدخل فى جميع أعمال الناس . ولكن مع كون هذا الأمر كان بسيطا فى أواخر القرن الثانى وفى القرن الثالث أيضا إلا أنه قد حدث فيه تغيير عظيم فى القرن الرابع ، ومنذ أن انتصر قسطنطين الملك على مكسنتيوس فى هذا القرن ونسب انتصاره إلى الصليب زاد اعتبار الصليب جداً ... (أوسابيوس حياة قسطنطين كتاب ١ وجه ٤٠ وكتاب ٢ وجه ٦ إلى ٩) وقيل إن هيلانة أم قسطنطين فى سنة ٣٢٦ وجدت الصليب الحقيقى فى أورشليم وشاعت الأخبار عنه بأن عجائب عظيمة صنعت بواسطته ، وبواسطة قطع منه حتى بواسطة الصور المأخوذة عنه أيضا .. ومهما يكن من أمر هذا التقليد فإنه كان سببا لصيرورة الصليب موضوعا لأعظم نوع من العبادة .

ومن ذلك الزمان فصاعداً صاروا ينسبون قوة عظيمة جداً إلى إشارة الصليب وإلى الصليب نفسه . وكانوا يعبدونه ويدعون له فى كل مكان بعجائب مختلفة ، وينتظرون منه فوائد جزيلة ؛ وقد دفعهم ذلك إلى صنع بعضها من ذهب وتقبيلها .

وإذا كان الصليب نفسه يعتبر ذا قوة معجزية على هذا المنوال فقد تبعه استعمال الصلبان معلقة فى الأعناق ومنقوشة على الأيادى ومرسومة على أشياء كثيرة وأمتعة البيت ، وكذلك استعملت الصلبان فى الكنائس ورسمت على أوانيها وذلك ابتداءا من القرن الرابع .

• •

أما التوجه نحو الشرق للعبادة لظهور نجم المسيح فى المشرق للمجوس مضافا إليه وجود جنة عدن شرقاً ، وشروق النور من المشرق ، فإنه بالرغم من هذه المبررات الظاهرية إنما هو فى حقيقته صدى منعكس عن « عبادة الشمس » التى مارسها إخناتون فى عصره ، ويذكر حزقيال عن كهنة الرب كيف أعطوا وجوههم نحو الشرق وهم ساجدون للشمس نحو الشرق (أص ٨) أما نحن فإننا نشكر الله لوجود شمس أفضل (شمس البر) ستشرق على العالم والشفاء فى أجنحتها وهى عند شروقها لاتحدد بشروق أو غروب ، لأنها الرب يسوع نفسه الذى سيشمل نوره المسكونة .

وواضح مما سبق أن اقتبسناه وأثبتناه فى هذا الفصل خطأ « تقديس الوسائط وعبادتها » الناشىء عن مبررات غير مقبولة نابعة من متاهات التفسير ومن عجب أن تتمسك بها أكثريات هائلة دون اكتراث بالتفسير الصحيح أو التزام بنصوص الكتاب المقدس التى تشجب مثل هذه الانحرافات !

بطلان العبادة الناقصة

تحذر رسالة كولوسى من تعاليم الغنوسطيين (أدعياء المعرفة) التى ابتدعت التواضع المزيف المرتبط بعبادة الملائكة والذى يؤدى إلى عدم التمسك بالمسيح رأس الكنيسة ورجائها الوحيد ! ومثل هذا التعليم قد أدخله معلمون كذبة تظاهروا بالتواضع وادعوا به ، غير أنهم لم يتواضعوا أمام الله جل أمام الملائكة بزعم أنهم لا يجسرون على الاقتراب إلى الله مباشرة ، وأن الملائكة لما كانوا أعلى منا مرتبة ، لذلك وجب أن نحترمهم كالأقرب إلى الله، وكمن يصبحون بذلك وسطاء يستطيعون مساعدتنا فى الاقتراب إلى الله ...!

وجعلوا بذلك من الملائكة سلسلة وسطاء تجرى من أسفل إلى أعلى ، آملين فى وصولها أخيراً إلى العرش - ولا شك أن مثل هذا التواضع الوهمى غير الحقيقى الذى لا يقترب به البشر إلى الله بواسطة ابنه يسوع المسيح الوسيط الوحيد ، إنما هو حقاً أعظم كبرياء ، لأنه ناتج عن انتفاخ باطل فى الذهن البشرى ! ولذلك عمدوا إلى « عبادة الملائكة » أى ترتيب عبادتهم على أساس شفاعتهم الأمر الذى سرى وأصبح شيئاً عادياً عند كثيرين من النصارى إلى اليوم !

وقد اكتشف سير وليم رامزى فى أحد هياكل الغنوسطيين ما يوضح عبارة الرسول الواردة فى الاصحاح الثانى من هذه الرسالة وهى قوله: «متداخلا فى ما لم ينظره ، وهو ترتيب صفوف الملائكة للاتصال بهم فى عبادتهم (حسبما زعموا) وقد تأثرت بهم كنيسة كولوسى فبدأت تراعى ذلك فى عبادتها بشكل أو بآخر - كان هذا هو حقيقة الأمر الانتفاخ من قبل ذهنهم الجسدى ، لأن المسيح لم يكن قد مات لأجل الملائكة ولم يجعل منهم جسداً له

ويضمهم إليه كبرأشهم ـ لاشك أن للمسيح السلطان المطلق على الملائكة كخلائقه ، حتى انه قد جعلهم خداماً للعتيدين أن يرثوا الخلاص ، وهو فى نفس الوقت قد رفع نسبتنا فوقهم بتقريبنا إلى الله وصيرورته عريساً لكنيسته إلى الأبد ـ ومن ثم فكل من أراد أن يربطنا بالملائكة ويخضعنا لهم فإنما هو منتفخ باطلا بأفكاره التى امتلأ بها من إبليس مصدر الأضاليل والأكاذيب !

ومن المعلوم أن الذى لا يتكل على المسيح وحده بل يخلط معه أموراً شتى ، يكون قد تركه كالرأس المجيد وأبدله ببعض الخلائق ، وذلك كعبادة الأصنام تماماً ، أما الذين قد أتوا إلى الله بالمسيح وصاروا منتسبين إليه فإنهم لا يحتاجون إلى وساطة الملائكة أو غيرهم من الخلائق . فما أعظم جهالة الذين يتغاضون عن علاقتنا الحية مع الله بالمسيح ، ويحاولون إدخال شىء آخر بينه وبيننا !

° °

ومما لا جدال فيه هنا ، أن تلك الحالة سالفة الذكر قد فتحت الباب للعديد من الفرائض التى يشمل فحواها القول: « لا تمس ولا تذق ولا تجس » ، ولقد كانت مثل هذه النواهى التى كانت تنهى عن مس جثة ميت أو تذوق طعام محرم أو جس شىء نجس ـ نيراً ثقيلا على الإسرائيليين لا يمكن حمله قد وضعه الله لأجل امتحانهم وإذلالهم ليريهم عجزهم عن الوقوف أمامه على أساس المبدأ الناموسى واحتياجهم إلى النعمة المجانية ـ ومع ذلك فقد ظهر أولئك المعلمون المتهودون وتمسكوا بشدة بهذه النواهى بتكرار مشدد يدل على تعصب لا يحتمل بل كان مستمراً فى الازدياد ـ « فلا تمس » نهى أقل شدة من « لا تجس » فالأول يقول لا تمسك بينما الثانى لا تلمس ولو بطرف إصبعك ...

وهكذا الزهد كغيره من الطبائع والعادات ينمو ويتطلب امتناعا أشد صلابة وانفصالا أكثر كمالا. والأمر كله إنما هو سوء فهم لجوهر المسيحية وتعلق بأمور سطحية للعمل أو الامتناع ، أما عمل المسيح فانه يتممه داخليا ، ويجمع أشعة اهتمامه على « إنسان القلب الخفى » لأنه إن صح هذا فالمنظور يصبح صحيحاً !

أما هذه الفرائض بأنواعها فانها للفناء فى الاستعمال فلا أهمية لها ولا فائدة منها أبعد مما فى استعمالها وليس لها أدنى تأثير على القلب ؛ حتى أن كل ما يتعلق بممارستها كان لا يزال مادياً فانياً بخلاف بركات النعمة التى فى المسيح فإنها روحية باقية إلى الابد .

وإذاً فلاقيمة تذكر للمبالغة التى أسبغوها على التنسك والزهد باعتبارهما شيئاً عظيما واستعمالهما بافراط والتلذذ فيهما رغم أنهما مرتبطان بمآكل ومشارب فانية ، قائمة على وصايا وتعاليم الناس ، وكان الأولى أن يبقى نظام الفرائض القديم وتكون ممارسته أوجب باعتباره موضوع من الله ، ولكن الله قد أبطله بموت المسيح فاستحال هو وما يشبهه إلى وصايا وتعاليم بشرية ، لأن الله لم يشأ أن يضعه على المؤمنين المسيحيين . فلسنا إذاً تحت سلطان الناس ، ولا ينبغى أن نكون لهم عبيداً حتى نقبل وصاياهم إذ أننا كمتحدون بيسوع فى خضوع تام له ملزمون أن نأخذ أوامرنا منه كالسيد الوحيد ونحن أحرار من الناس لا لنرضى أنفسنا بل كعبيد الله لنرضيه !

أما التواضع (المزيف) الذى سلفت الإشارة إليه فهو فى الواقع « إذلال النفس » بتلك الفرائض التى يختم الرسول الاصحاح الثانى من كولوسى بقوله عنها :

« التى لها حكاية حكمة بعبادة ناقلة وتواضع وقهر الجسد (وكل هذا) ليس له أية قيمة من جهة اشباع البشرية » : هنا خاتمة المسألة وخلاصتها ، فهى

(أى هذه الفراض) لها حكاية حكمة أى مظهر حقيقة أو شهرة بأنها حكمة ، أو شيء شبيه بالحكمة ، بحيث أنها تظهر حكمة فى أعين البشر ولكنها جهالة فى نظر الله الذى أغنانا عنها بالمسيح ، وأثمارها تبرهن حقيقة ما هى عليه كمجرد « عبادة نافلة » أى (زائدة غير مطلوبة) ومع أنها تبدو ثمينة فى نظر أصحابها إذ هى أكثر مما يطلبه الله (كتقريرات الكنائس التقليدية بالنسبة للاضافات التى استحسنتها) ولكنها فى الواقع تحمل أصحابها إلى مخالفة كلمة الله وتجاهل مشيئته واستبدالها بإرادة الإنسان - ورغم أنها خلابة للنظرة السطحية إذ لها مظهر التقوى البالغة والعبادة الحارة ، لكنها عند الفحص الدقيق تظهر أنها لمجرد إشباع إرادتهم بما اختاروه هم لانفسهم - وحيث أنهم يؤدون عبادة لم يطلبها منهم الله فهم بمعنى صحيح للغاية يعبدون « عبادة نافلة » « ولا يعبدون الله مطلقاً ، لأن مثل هذه العبادة ناشئة عن إرادة الإنسان لا عن الطاعة لله ولا عن تقواه الحقيقية فى القلب !

أما عن التواضع المذكور هنا وهو ملء الشقة بين الله والإنسان بوسطاء من الملائكة ، فهو تواضع كاذب ، لأنه أى شيء يكون فى الواقع أكثر تواضعا من أخذ الله بكلمته وقبول طريقه المعين منه ، وليس اصطناع طريق آخر ملىء بالشفعاء والوسطاء بجانب المسيح كما فعل أولئك عن انتفاخ وكبرياء .

ويأتى وراء هذا كله « قهر الجسد » أى عدم إعطائه أية كرامة رغم شمول الفداء له ، وتركيز الظن بأنه باعتباره مادة فانه منبع الشر ، فلا يجب الشفقة عليه بل التعامل معه بالتقشف والزهد كعنوان للتخلى عنه دون إخضاعه لمحبة الله - وبهذه الكيفية عينها يسلم الإنسان نفسه للألم ولبس المسوح وقبول الجلد والتعذيب والحرمان ظنا منهم أن فى ذلك الأجر والثواب لأنهم يعتقدون أن للخطيئة أصلا عميقاً فى ذات أجسادهم التى ليست سوى آلة ضعيفة يستخدمها شر القلب الدفين الذى منه تخرج الشرور وهى التى تستعمل

أجسادنا كآلاتها فإذاً لن يكون استئصال الخطية بقهر الجسد ، وطالما جرب ذلك أناس أتقياء على أمل أنهم يغلبون حركات الخطية فيهم وإنما اختبروا قوتها الزائدة : ومع ذلك ما أكثر الذين يمدحون ذواتهم بقهر الجسد بكيفية ما بجعلهم أنفسهم مساكين . ولكن هكذا حال الدين حينما تكون مصادره بشرية فهو يمنع الموافق المقبول ويأمر بغير الموافق ولا المطلوب !

ولكن الحكم النهائى على هذا الوضع بأسره هو « أنه ليس بقيمة ما من جهة إشباع البشرية » فان الجسد خلقه الله الذى رتب له مقداراً من القيمة والكرامة فلا يجوز لنا أن نهينه حيث أن الله خلقه وعين له اللباس اللازم والطعام المناسب والاعتناء به من عدة أوجه فله بعض حقوق لا يجوز لنا أن ننكرها عليه ـ فاذاً ، التقشفات تخالف ترتيب الله من كل الاوجه ليس إنها عديمة النفع بل هى شر أيضاً فى ذاتها . لانها لا تميت الجسد بل قد يجد لذته فيها ، فهو لا يشبع سوى الإرادة الذاتية ، فضلا عن كونه داعياً للانتفاخ يجعل من يمارسه يفتكر أنه أفضل من بقية الناس ...

* *

وجدير بالذكر هنا ما كتبه باردييف الفيلسوف الروسى المسيحى فى هذا الموضوع بقوله : « إن التصوف بعكس التقشف لا ينبع من الإنسان وحده ، بل يفترض وكالة النعمة الإلهية وتأثير روح الله . . أما التقشف وهو الزهد وتوقيع أنواع من التعذيبات على النفس البشرية بقصد الحصول على رضا الله فهو مجرد محاولة من جانب الإنسان لبلوغ أقصى درجات الكمال الممكن تصورها عن هذا الطريق ... وواضح أن مثل هذا الاعتقاد الغامض لا شأن له بالتفسير الإيجابى للالم والتضحية وعلى أية حال فان التقشف إذا أريد له أن يكون نافعاً نجده فى احتياج مستمر للروحانية والتحرر من العناصر السحرية .

ولقد كان نقد لوثر من هذا الوجه قويا ، وساعد على تحرير التقشف مع أن إدراكه للحياة الروحية كان فى البداية محدودا وضعيفاً ؛ فلقد اقتنع لوثر بأن الناس يصبحون رهبانا بسبب اليأس والخوف — والحاجة إلى طريق آخر للخلاص يفسر بالأعمال الصالحة ،ورغب لوثر فى طرح حمل الخطية بواسطة الإيمان بالمسيح .. فبدأ يسأل عن ضامن للخلاص ، ولكنه صار مقتنعاً بأن مثل هذا الضامن لن يوجد فى التقشف الرهبانى ، ولكن اقتناعه هـــذا لم يساعده ليرتفع فى تفسير الحياة الروحية .

وهناك أنواع ثلاثة من التقشف : نوع يتم عن خوف وجزاء ، ونوع للتحرر من قوة العالم ، ونوع للتجاوب مع محبة الله، وهو يتعامل مع الله بطرق متنوعة فقد يدافع عن إهمال وإماتة الجسد أو تدريبه لأجل الاحتفاظ بقواه وازديادها . يقول فلدمير : « إن المادة المنعزلة عن الله هى شر مطلق وعطش لايطفأ » وبذلك يظهر أن التقشف المزدوج للروح والمادة ليس بمسيحى. لقد تنبهت الكنيسه لهذه الأشكال المتطرفة من التقشف والنروحن وأدانتها

فالمسيحية بعكس البوذية تطلب تحكما للجسد لاتحررا منه ، ولكن فى تاريخ الكنيسة توقفت أشكال التقشف والأهمية المعطاة لكل منها إلى حد بعيد على التأثيرات الاجتماعية ؛ وهذه بدورها ساعدت فى تشكيلها وبالأخص من ناحية الجنس أكثر من النواحى الأخرى ... وكانت المناولة تمنع عن الذين لايتشكلون بشكل معين من هذه الناحية التى كانت تقررها حالات التفسير الاجتماعى ، ولذلك كانت الكنلكة تمنعها عمن لايوافق على علاقاتهم المجتمع مهما تكن مؤسسة على المحبة .

هذه صورة شنيعة من الفريسية الناموسية — وكانت الكنيسه أقل قسوة تجاه حالات أخرى أكثر خجلا مثل شهوة التملك والربح والفقر النابع عن

ظلم وعدم عدالة فى العمل . وبدأ هذا السؤال يظهر : « أى الخطايا أقرب الى الخطية الأصلية خطية الجسد أم عثرة الآخرين وإهانة الشرف البشرى ، والحكم على الناس بالجوع ؟ » ولكن الكنيسة كانت قد وقعت فى أيدى طبقة الشرفاء فلم يكن ممكنا أن تمارس أية وصايا تجاه الأملاك ، فلم تقدم اية معارضة ضد من كانوا يستغلون غيرهم بدلا من خدمتهم ، وإذ قد ربطت الاسر بالممتلكات فإن الكنيسة ركزت على المشكلة الجنسية مع أنه كان من الأفضل أن تحدث التوبة لسبب تعثير آخر فى الحياة الاجتماعية من كسر قانون صيام أو الحنث بقسم تقشفى !

فهل يساعد التقشف على إنارة الطبيعة البشرية أو توسيع نطاق الضمير البشرى ؟ إن الاختبار لا يؤيد النظرية إيجابيا . فإن تقشف الزهد يفشل تماما فى إنارة الإنسان كله بكافة النواحى المظلمة التى فى الطبيعة البشرية — فقد يصرف الراهب عشرين سنة فى منسكه يمارس التقشف ويصلى معظم الوقت بدون التخلص من عمق الغموض فيما يختص بقيم الحياة الاجتماعية : فحتى فى زمن الآباء لم يكن هناك لدى هؤلاء المتقشفين سوى نور جزئى عن الطبيعة البشرية ، فكانت أفكارهم مظلمة نحو أمور كثيرة رغم أن قلوبهم كانت تشع نورا . وهكذا نرى التقشف يفشل فى إنارة الذهن ؛ وفى كل الأحوال لا نجد هذه الإنارة كنتيجة أتوماتيكية للتقشف . مهما كان مقبولا ومخلصا ومع أن المفروض فى التقشف أن يحرر قوى الإنسان الخلاقة ، إلا أنه كانت له نتيجة عكسية هى إطفاء هذه القوى ، وهـــذا يقودنا لمشكلة العلاقة بين التقشف والوحى ...

* * *

ونحن نجد هنا أن الوحى وحده ينمى الجانب الإيجابى من الطبيعة البشرية ويحرره من ثقل الخطية بينما التقشف يتعامل مع الجانب السلبى فهو مضاد

للوحى ولذلك فإنه يفشل فى إثارة الإنسان . الوحى هو نفخة الروح ، تفسير الإنسان نفسه بالروح ، وهو لذلك تبع لكل حقيقة خلاقة ، أما التقشف فله علاقة مزدوجة بالوحى : فمن جهة يمكنه أن يركز ويوجه قوى الإنسان الخلاقة ومن الجهة الأخرى يمكنه أن يقتل هذه القوى باعتباره الوحى كشىء ناقص. وعمليا نجد التقشف يتجه نحو النفى فحسب ، فى حين أن قوة الإنسانية الوراثية الذاتية يمكن تركيزها وتوجيهها لأغراض خلاقة والتسامى بها تساميا خلاقا ، ولكن ذلك بتأثير وفاعلية الوحى ، ولكن هذا الاتجاه يمكن أن يضغط ويستبعد ويقتل ، وبذلك يكون التقشف ضد الوحى وهو يتجه نحو نزع اكتفاء الإنسان البشرى ؛ والنتيجة هى تعطيل قوى الطبيعة البشرية ، ومثل هذا النوع من التقشف يفشل فى استحضار إعلان الصورة الإلهية فى الانسان

ولقد ورد فى كتابات الآباء : « بأن الفضيلة قد خلقت من نفس المادة التى تنتج الشهوات) فمن كل شهوة يمكن أن تتكون فضيلة ، ولكن التقشف بإماتة الشهوات إنما يفنى المادة التى هى منبع الفضائل . وليس هناك شىء كريه مثل الفضائل المتجمدة التى لا حياة فيها ، إذ هى أشبه بمومياء صنعها التقشف ، فإنها تصبح بذلك عدوة لكل الدوافع البشرية !

ومع أن البعض يحسب الارتباط بالوحى أمراً خطيراً كالحب وكل شىء خلاق ، ويفضلون الطاعة والوداعة فقط باعتبار أن لا ضرر منهما ؛ إلا أن ذلك ليس سوى خداع نفسى يكون فيه الانسان ضحية التقشف الكاذب ، إلا أنه لا توجد دائرة مهما كانت منحصرة ومحروسة يمكن للإنسان أن يعتبر نفسه فيها مأموناً مضموناً — فإن الحياة الروحية خطرة مملوءة بالمخاطر ويوجد شاهد على ذلك فى أوصاف أكثر الاختبارات النفسية البشرية والتى تثبت أن التجارب والضيقات هى النصيب وخاصة للروحانيين مما يؤكد أن

شرف الإنسان وكرامته كروح حر إنما يرتبطان إرتباطاً وثيقا بالتجارب

والأخطار والمجازفات حتى إن ذات البحث عن الأمن والاستقرار إنما هو

تجربة شريرة للحياة الدينية ، إنها كذبة بل مجرد خداع نفسي ليس إلا . فإن تقدم الروحانية لابد أن يرافق بأخطار متزايدة وهذا أمر مؤكد ... كما أن الطاعة والوداعة يمكن أن يكون لها أخطارهما كذلك ، وفي معناهما الأردأ يمكن أن يكونا أكثر خطورة من الوحي والإنتاج الخلاق . فالطاعة مثلا من الممكن أن تتحول إلى عبودية (أي قبول حالة ما من الاستعباد) ومجرد إستسلام للمسئولية ، وخيانة لروح الحرية التي بدأت في ظهور واضح بإلاله المتأنس ، وبذلك يمكن أن تصبح الطاعة آلة شر . والوداعة أيضا يمكن أن تلبسها كل صفات الكبرياء . ولا شك أن كبرياء الودعاء هي أشر أنواع الكبرياء ، كذلك من الممكن أن تحول الوداعة بسهولة إلى رياء ، فتظهر نفسها في مظهر منظور لا علاقة له بالحقيقة أو بأي نوع من الاخلاص . وإشارات مثل هذه الوداعة وكلماتها وتعبيراتها يمكن أن تكون كلها عكسية ومثيرة .

الوحي فقط — نفخة الروح الخلاقة — هو الذي يستطيع أن يحرر الإنسان من هذا التمزق الخطير لصورته ، وما الخوف من الوحي وإنتاجه الخلاق سوى خطية مولودة من تفسير استعبادي منحرف للخطية الأصلية نفسها . ولكن — عمليا — هذه الفكرة الكاذبة التي ملكت الخطية إنما قد غرست بالأنانية والتركيز الذاتي لدى البشرية بسبب عجز الإنسان عن إدراك مثاليته وتحقيق تحرره . ومثل هذا التركيز الذاتي يولد وداعة مصطنعه ويحول الطاعة إلى بر ذاتي ..

. . .

وهنا بواسطة الشعور بالخطية يبدأ إتصال التقشف بمشكلة الإنسان فيما يختص بالتفاؤل والتشاؤم — يؤيد ذلك ما نادى به روسو من أن الطبيعة

البشرية مزدوجة : سامية ودنيئة ، حرة وعبدة ، وهذه الحقيقة تؤثر فى كل الكيان الروحى للإنسان . وقد ظهر هذا الازدواج فى التاريخ المسيحى واتخذ شكلا معوجا — فإن المسيحية من ناحية التقشف قد أنكرت العالم ولكنها تمشت معه فى آن واحد بسهوله . فكان هناك تكريس تقشفى للاردأ إذ اتجه نحو أكثر أشكال الحياة عبوديه وظلما باعتبار أن الطبيعة البشرية خاطئه وحالتها هذه تتطلب الضغط والالم بالتقشف الشديد ، وأتخذ من ذلك عذرا لتخويف الإنسان مع أنه يقف عقبه فى طريق التكريس الداخلى ومعالجته مع العالم الخارجى فقد سار الإنسان بسببه على عقيدة ذاتية بأنه ليس لديه قوى روحيه قادرة على مقاومة الخطية . وهكذا كان هناك تصور بأن كلا من الخطية ومقاومتها إنما يقومان فى نطاق القوى الخارجيه بينما نجد أن وكاله الروح القدس عمليا — وهى التى بدونها لا يمكن للإنسان أن يجاهد ضد الخطيه إذ لا يمكنه أن يؤمن ولا أن يرجو — ليس فقط شيئا مقدسا جداً ، بل هى من القوى الداخلية .

هذا مع أن التقشف الروحى إنما هو عملية داخلية تقوم على التأمل الباطنى ويمكن تركيزها وبحسب ذلك تكون الحياة الروحية إصطداماً مع قوى خارجية يشعر بسببه الإنسان بأنه هو نفسه قد تحطم .

وهكذا تنقل الخطية مركز الجذب البشرى من مكانه وتجعل الطبيعة البشرية مركزة ذاتيا ، وكنتيجه لذلك تظهر كل الاشياء بأنها خارجية بالنسبه للإنسان. من وجهة نظر التركيز الذاتى ، ترى الروحانية كشىء خارجى بأكثر من أن يكون داخليا وعميقاً . هذا هو العقاب العاجل للتمركز ذاتيا . فلكى يكون الروح قوة داخلية فعالة من اللازم أن ننتهى من الإحساس المركزى بالذات

هذه هى عقدة الحياة الروحية بحق !

إن التقشف يجب أن يرد للإنسان كرامته لا أن يدفعه إلى عدم الكرامة وهو بمقدار ما يفصل الإنسان ويعزله عن أقرانه ، يدفعه بالاكثر إلى ذاته فتصبح شكلا جديدا من التركيز الذاتى : هذه هى نتيجة التركيز فى الخلاص أو الهـــلاك الشخصى . ولكن هناك لزوما للتقشف لتعليم الإنسان الشركة والاخوة — فان مصير الانسان يرتبط بمصير العالم ، ومن ثم فان عليه أن يحمل ثقل العالم ، يجب أن يكون له نشاط خلاق فى العالم ومتحرر من العالم على السواء .

فى العالم المعاصر يضطر الناس إلى العيشة فى مجتمع مقسم : إنهم عبيد المجتمع ولكنهم فى الاعماق يبقون فى وحدة مرهبة : هذا الوضع يتطلب أشكالا جديدة من التقشف بعيداً عن التركيز الذاتى حتى أعتبر الخلاص إنما هو فى الإتصال بالناس وفسرت المحبة بطريقة التقشف كمبدأ للخلاص بدلا من أن تكون وسيلة حقة للتسامى فى تقشف كهذا لا يوجد هروب من الذات ولا شركة حقة فى سر شخصية أخرى — يبقى الإنسان هنا عالما مغلقا يطلب خلاص نفسه فقط . مثل هذا النوع من التقشف مصيره الاختفاء . إن الانسان المعاصر يحتاج إلى نوع آخر من التقشف هو تركيز فى الرفض الذاتى وتحديد لنوع الاحتياجات وشوق نحو غير المحدود ، هذه هى الاساسات التى يجب أن توضع للتقشف الجديد كما للروحانية الجديدة وذلك لكى يظهر نوع جديد من القديسين ممن يأخذون على أنفسهم حمل العالم المعقد !

جريمة مساندة الله

إن أبرز ما يحدثنا عنه الكتاب المقدس هو وجود الله وحقه المطلق فى الحكم، ومن ثم يحدثنا الأصحاح السادس من سفر صموئيل الثانى، والثالث عشر من سفر أخبار الأيام الأول عن القرار الحكيم الذى أصدره داود الملك من جهة إحضار تابوت الله كإقرار من جانبه بالحكم الإلهى، وأنه كالملك المعين من الله نجده يبدأ حكمه بالجانب الدينى، فبعد أن أتم تحقيق الوحدة بين شمال مملكته وجنوبها رأى أن يعلن قيام «الحكم الإلهى» بإحضار التابوت ووضعه فى المدينة التى بناها فى وسط المملكة حتى يسهل الوصول إليها دون أن يكون هناك إنحياز لأى من الطرفين ...

هكذا أراد أن يربط التابوت بعرشه ويجعل الساكن بين الكروبيم مجد عرشه . كان تابوت العهد هو العلامة الخارجية للعلاقة القائمة بين الله وشعبه حتى إن فقد التابوت اعتبر إيخابود (زوال المجد) بالنسبة لذلك الشعب . وفى الحالة التى أمامنا نجد أن الله قد كسر هذه العلاقة بأن أسلم عزه للسبى وجلاله للعدو يوم أن ترك الفلسطينيين يأخذون تابوته ! ولكن التابوت عند الفلسطينيين أوقع عليهم المصائب لأن الرب لم يصطلح مع أعدائه بسبب سوء حال شعبه !

ولقد ارتضى شاول الملك السابق بهذا الوضع فترك التابوت مهملا بالكلية مما دفع الشعب لأن يكونوا مهملين هم أيضاً ولم يعد التابوت موضوع تفكير أو اهتمام لديهم واكتفوا بتقديم ذبائح فى جبعون المقر الرسمى لخيمة الاجتماع حال خلوها من التابوت ، إلى أن جاء داود وانشغل جداً باحضار التابوت وكان هذا عملا ممدوحا فى حد ذاته . على أن الطريقة التى استخدمها داود فى

إحضار التابوت كانت خاطئة أدت إلى الوقوع فى جريمة مساندة الله — وهذه هى أركانها : —

١ — الديمقراطيه المنفردة :

وهى تعنى إحلال حكم الشعب محل حكم الله :

هنا نجد داود يتشاور فى اجتماع ديمقراطى على مستوى القمة معلنا أنه لا يفرض رأيه بل إن حسن عندهم — وكان ذلك من الرب — فليرسلوا إلى كل جهة ويجمعوا جميع الشعب لكى تكون لهم جميعا الفرصة فى مشاركة جماعية واحدة واستخدم داود الإقناع بأن التابوت لم يسأل عنه من أيام شاول . وجاءت الموافقة من ممثلى الشعب فأصدر الملك داود أوامره بجمع كل الشعب من شيحور مصر (النيل) جنوبا إلى مدخل حماة شمالا

لقد كان يظن حسب فكره أن كل ما اقترحه وتمت الموافقة عليه لابد أن يكون متفقا مع فكر الله . وحسن الأمر فى أعين جميع الشعب ، وأرسل الملك أمره للتنفيذ المباشر قبل أن يتحرك الفلسطينيون الذين سبق لداود أن صدهم مرتين فى الأصحاح السابق مباشرة (أص ٥) ولم يكن الخطأ فى التشاور فى حد ذاته بل فى عدم التحقق من مشورة الرب وتعليماته .

٢ — الفخامة المظهرية :

وهى تعنى « تكريم التابوت بالمظاهر الخارجية الفخمة » :

وهنا نجد ارتباط غيرة داود بالروح الحربية وتصوره أن يكرم الله بذلك ومهما يكن عذره فى ذلك كتخوفه من مقاومة الفلسطينيين مثلا ، فانه قد ظن بأن الامر يتطلب تغليف الاحتفال الشعبي بمظهر حربي عظيم ، وكأن التابوت لا يستطيع أن يحمى نفسه ، وأضاف إلى ذلك استخدام كل الآلات الموسيقية

التى كانت معروفة لديهم ، لكنه لم يعتبر طرق الرب ولم يلتزم بالمرسوم فى كلته ، وقد أجاب الرب بطريقة مختلفة جداً بموت عزة . لقد كان طلب داود للتابوت بدافع الرغبة فقط (مزمور ١٣٢) ولكنه نسى مجد الله الاسنى الخطير الذى أدى إلى ابتعاد الله عن شعبه كما حدث من قبل وهيهات التعويض عن ذلك بأفراح مصطنعة .

٣ ــ النظام التقليدى :

«وهو يعنى استحسان ما يروق فى نظر الاعين البشرية واتباعه» ــ هذا هو الاستحسان البشرى ، فبدلا من إحضار التابوت محمولا على أكتاف الكهنة وفقا لما أمر به الرب أحضروه على عجلة (مركبة) جديدة . إنه يقلد بلاشك الفلسطينيين فى ذلك ويتشبه بهم عندما وقع التابوت فى أيديهم ــ كان أولئك على حق إذ رأوا الله يشهد لنفسه كإله كل الخليقه وتحققوا من أن إبقاء ما يرمز لحضوره عندهم كاد يفنيهم ففكروا فى التخلص منه وصنعوا له عجلة وضعوا التابوت عليها وأخذوا بقرتين مرضعتين وربطوهما إلى العجلة وحبسوا ولديهما فى البيت .. فاستقامت البقرتان فى الطريق . . وكانت تسيران فى سكة واحدة وتجأران ولم تميلا يمينا ولا شمالا ... فأتت العجلة إلى حقل يوشع البيتشمسى ووقفت هناك وهكذا وصل التابوت بهذه الاعجوبة التى كانت بمثابة علامة من الرب للفلسطينيين لكى يتأكدوا أن ما جاء عليهم كان منه تعالى قصاصا لهم ولم يصبهم عرضا وحينئذ فهموا أنهم وإن كانوا قد انتصروا على إسرائيل فهم لم ينتصروا على إله إسرائيل بل هو تعالى أشرف عليهم وأخرب محلتهم . ولكن إن كان الله رضى أن يحمل تابوته على عجلة من أناس لا علاقة لهم بالشريعة فهذا ليس معناه أن يفعل هكذا مع من لهم معرفة بها لان الله يطالبنا بقدر النور الذى يكون قد وصلنا ، وكثيرا ما يقول

البعض عن الأمور التي يأمر بها الكتاب إنها أفكار رجعية ومن واجبنا أن نتطور قليلا مع مدنية العصور الحديثة ، ولكن يا حبذا لو تكون عندنا مثل هذه الرجعية إن كانت ترجعنا إلى حدود الطاعة لأوامر الله . . فان تشبه داود هنا بالفلسطينيين كان أمراً مغلوطا وكانت نتيجته تعيسة ، هذا مما يجعلنا نتحفظ جدا من جهة الالتزام بالطاعة لأن حمل التابوت هنا على طريقة لم يأمر بها الله قد أحدث انزعاجا . . ولم تكن الغلطة غلطة داود وحده بل كانت بالاكثر غلطة الكهنة الذين استأمنهم الله على أقواله وصار الناس بمقتضى ذلك يطلبون الشريعة من أفواههم فكان على الكهنة إذن أن ينبهوا داود ولكنهم قصروا بل كانوا البارزين فى المخالفة بما فعله أخيو وعزه من سيرهما قدام التابوت وخلفه - وهو محمول على المركبة - ولعلهم قصدوا وتصوروا من نقل التابوت على تلك المركبة الجديدة بأن ذلك يعطى مجدا لله أكثر مما طالبهم به ولكن الرب الذى لا يعطى مجده لآخر حـــول فرحهم إلى غم لاستخفافهم بأمره واحتقارهم ترتيبه كأنه له المجد حسب زعمهم لم يعرف أن يرتب لنفسه ترتيبا يمجده بالتمام فعمدوا إلى عمل العجلة الجديدة الفخمة ظنا منهم أنها تعطى لله مجدا لم يكن يتوقعه من ترتيبه الاصلى ، وبالضرورة يصير الله ممنونا لهم ، ويلتزم أن يوافق على نظامهم مبطلا كلامه كشىء لم يأت بالغرض المقصود . وهنا ينكشف لنا أن الغرض من رفض ترتيب الله وتجييد أنظمة البشر هو تعظيم الإنسان لا تعظيم الله - ونفس هذه الغلطة قد سقط فيها قادة الكنيسة الإصلاحية إذ أنهم رفضوا التمسك بكلمة الله الصريحة البسيطة وأدخلوا استحسانات زعموا أنها تمجد الله أكثر من ترتيبه الموحى به وكأنهم بذلك يخطئون الله وكأنه حسب أفكارهم القاصرة لم يضع الصالح .

وهكذا يتصرف غير حكيم وضعوا أنفسهم موضع الله واستبدلوا حقه بنظامهم الخاص ، ولولا أننا فى عهد النعمة الآن لخرجت نار من عند الرب

وأكلت واضعى هذه الأنظمة الذين صنعوا العجلة الجديدة ، ولضرب الله المعلمين فيها لأنهم قصروا عن تفصيل كلمة الحق بالاستقامة . . وآسفاه فإن الكنيسة الإسمية لم يعجبها ترتيب الله هذا لأنه يجعل الإنسان لا شيء ، وعلى يد منظميها وقوادها عملت العجلة الجديدة ـ ولكن أين أمر الله بصنع هذه العجلة فى الشريعة ؟ ألم تكن من الاستحسانات أو التحسينات التى أبدلوا بها ترتيب الله الموحى به ؟ فلنحذر من هذه الترتيبات التى قام البعض باختراعها ووضعها كتقليد للغير ، ولنشهد لسلطان كلمة الله ووحيها المطلق دون أية تعديلات !

٤ ـ القيادة البشرية :

« وهى فى هذا المشهد الدينى غير موفقة وغير متزنة » ـ فقد كان الواجب أن الله هو الذى يسير أمام شعبه كعادته ولكننا نرى هنا : « أخيو (أخوه ـ أو أخو عزة) يسير أمام التابوت » أما عزة نفسه فيبدو أنه كان يراقب المؤخرة ـ واحد فى المقدمة والآخر فى المؤخرة هما معاً يسوقان العربة التى يجرها ثوران شامصان (أى يريدان التخلص من النير عند رؤيتها بيدر ناخ . ن) انشمصت الثيران فاهتز التابوت وفى هزته جر عليهم الويل والخراب ، وهكذا كم مرة نبدأ فيها نظرهم بالفرح ولكن ننتهى منها بالأحزان ذلك بسبب انشماصنا . . كم مرة تكون خدماتنا وعبادتنا بمجرد انشماص يقلق راحة التابوت ويهيج خاطره . .

هنا انشمصت الثيران فمد عزة يده وأمسك التابوت (هذه هى خدمة الذات المرعبة) إن مسرة التابوت هى فى رؤية الثيران المذبوحة كما فعل داود فيما بعد هذه الحادثة (٢ صم ٦ : ١٣) أما الثيران الشامصة التى بدأت بها فإنها تثير غضبه إذ أنه بسبب الانشماص اهتز التابوت وأراد عزة أن يسنده فسقط صريعاً ميتاً . .

ويا للأسف على الإنسان عندما يستسلم لغباوته فانها لابد أن تقوده دائما إلى طرق الارادة الذاتية . لقد خاف عزة من أن يسقط التابوت على الأرض فاستخدم يده ليسنده ، كانت مساندة عزة جريمة فى حق الله موجهة ضده تعالى إذ اعتبره فى حاجة إلى من يقوم بمساندته ـ فليحذر كل منا من أن يضع يده البشرية ليسند ما يخص الله وأموره ، فليس الانسان هو الذى ينقذ تابوت الله إذ أنه سبحانه له القدرة وحدة إلى أن يسند نفسه بلا حاجة إلى سند ما .

لقـــد كان عمل عزة سليما من وجهة نظره ، فإنه إذ رأى الثيران وقد انشمصت (أى رفصت) وبدأت تقفز لأعلى ثم تعود إلى أسفل وتهتز يمينا وشمالا وتريد أن تنفلت من العربة فى حركات غير طبيعية فان أول ما خطر على باله الإقدام على مسك التابوت وسنده لينقذه من السقوط ظناً منه أنه يستند كلى الاستناد على الثيران ، مما يدل على أنه لم يكن للتابوت فى نفس عزة الهيبة اللائقة به كما يحدث معنا إذ نفقد رهبة حضر الرب ونتصور أن عمل الله يعتمد على شخص ما ، أو ما يقوم به ، وعندما يحدث تغيير فى الموقف ونتهور ونتقدم لنسند الله ـ ونظن مع عزة أننا فى حالة سامية ما دمنا فى مركز القيادة فقد كان عزة قائداً من اثنين أمام كل الشعب ولا شك أنه أحس بالارتفاع إذ أصبح من الأفراد المعدودين ، وهذا قاده إلى الغطرسة فلم يحتمل انشماص الثيران واندفع ليسند التابوت . نعم إن ما يفعله الإنسان يسمى الانسان لتدعيمه ـ وهذا هو أوج الوضع التقليدى ـ ولكنه فى ذلك يلمس مجد الرب فيسقط أمام جلاله ـــ وهنا ظهرت النتائج :

أولا : اقتحام عزة وضربه بالموت :

حمى غضب الرب على عزة (معناه قوة) وكان العقاب قاسياً من بدايته وظهر ذلك الغضب فى ضربته له كأعلان عن بره ـــ لانه من هو هذا الإنسان

ـ أياكان ـ وهو مجرد مخلوق ضعيف حقير عاجز أمام الله الخالق القوى الجبار ، حتى لا يدرك حقيقة ضعفه أمام قدرة الله الكلية وحقارته أمام عظمة الله التى لا تحد ـ من هو هذا المخلوق حتى يظن أن بمقدوره أن يسند الله القادر على كل شيء خالق الانسان وضابط الأكوان الذى لا يحتاج إلى سند بشرى . . لقد ظن عزة أنه وصل إلى حالة طيبة متقدمة جدا يمكنه بها أن يسند الله نفسه الذى يبدو وكأنه محتاج إلى سند ، مع أنه مهما بلغ الانسان فإنه ناقص ويحتاج إلى نمو ، ولذلك فإن الله لا يحتاج إلى سنده ـ هل تأكدنا من ذلك وتحققنا، وهذا يؤيده ما جاء فى أعمال ١٧ : ٢٥ من أن الله لا يخدم بأيادى الناس كأنه محتاج إلى شيء ! فإن (فارص عزة) هنا أكبر شاهد ليس على اكتفاء الله بذاته دون أى احتياج خارجى فقط ، بل وأيضا على نتائج إهمال كلمة الله وعدم الالتزام المطلق بالاسترشاد بها دائما . . !

ثانيا : اغتياظ داود من هذا الاقتحام :

اغتاظ داود هنا من قساوة الحكم ونسى مكانة التابوت المحتقرة وكيف أن احتقاره هذا كان السبب فى تحوله من البركة والحماية إلى القتل والموت الأمر الذى سير الاحتفال جنازة . . لقد تألم الفلسطينيون من قبل بأمراض فقط لأن الناموس لم يعط لهم فكان خطأهم عن جهل ـ أما عزة وهو لاوى ومتعلم الناموس فقد واجه الموت بسبب غفله ـ قد يبدو عقاب عزة لدينا عظيما جداً ولكن لا يليق بنا أن نجلس للحكم مكان الله ، وواضح أن القصد الإلهى كان ضرورة إيجاد الرهبة لجلاله والخضوع لناموسه والاحترام العميق لفرائض عبادته المرسومة ـ ومن الغريب هنا أن نجد داود يغتاظ لما تصرف الله حسب مطاليب مجده وضرب الرجل الذى وهب لداود معونته فى إتمام رغبة قلبه ـ إن موت عزة كان نتيجه لسلوك داود وهو غضبان مع

الرب عند حدوث هذه النتيجة ـــ وكأنه يريد أن الرب يسكت ولكن الله لا يسكت ولا يدع مجده يداس . .

« اغتاظ داود » وعلى من اغتاظ ؟ هل على نفسه ؟ ياليته كان كذلك! بل اغتاظ على الرب ... حقا قد قصر نظره وأراد أن يخفف من وقع هذه الجريمة ــ وهذا بعينه هو ما يحدث معنا عندما لا نغتاظ على أنفسنا بسبب شرنا ، بل نسيء الظن في محبة الله ، وبدون ترو نأخذ في مقاضاته ـ وكأنه تعالى ظالم أو أخطأ في تصرفاته معه ، ثم نراه يشتد في غيظه فيسمى الموضع « فارص (أي اقتحام) عزة » ولكنه في الواقع يفترس نفسه في غيظه كما قال بلدد الشوحي لأيوب ، ويكشف الله لأيوب سبب اغتياظه منه تعالى فيقول له : « تستذنبني لكي تتبرر أنت » !

وصحيح أن هذا هو السبب في اغتياظنا على الله وتذمرنا من معاملاته الحكيمة معنا ، بينما كان يجب أن يحصل عكس ذلك ؛ لأننا بنو الحكمة ، « والحكمة تبررت من جميع بنيها » فنبرر الآب المحب لأنه بار ويحكم بغير محاباة وبعدل ـ وليس أدل على الابتعاد عنه من تبرير الذات والاغتياظ من معاملاته وإدانتها بدلا من إدانة أنفسنا وتبريرنا الله في كل طرقه وخضوعنا لمشيئته ولو لم ندرك عدالتها أو حكمتها أو الخير الذي سيعود لنا منها بسبب عدم تمييزنا الروحي .

ثالثا : خوف داود وحيرته في ذلك اليوم :

خاف بسبب غضب الله ولئلا يمتد العقاب عليه وعلى الشعب ـــ كان لابد أن يدعم الله جلال سلطانه بعدم سماحه لأحد أن يلمس تابوته ـــ ومع أنه إله نعمة وبركة ومهما تكن نوايا شعبه إلا أنه من المهم أن ما هو عليه يجب أن يظهر بوضوح في معاملاته العـــامة ، وإلا فان كل شيء يخرب ، لأن

الاستخفاف يقود الناس إلى الإرادة الذاتية . صحيح إن الله صبور تقديراً لعلاقته مع شعبه ولكن التأدب لازم فى وقته عند الضرورة . لأنه مهما كانت النوايا طيبة فمن اللازم أن الحق وأن ما هو من الله يظهران بوضوح فى معلاماته الجهرية وإلا فلا تكون حكومته مؤسسة وبالتالى يتحطم كل شىء. صحيح إن الله مملوء من الصبر وهو يستمر متصرفا بحسب العلاقة التى كونها بين شعبه وبينه طالما كان ذلك ؛ لكنه قد يضطر فى نفس الوقت أن يؤدب ويجلب القضاء أخيرا حتى يكون عند الجميع خوف !

لقد تألم داود وارتاع من الحادثة : تألم حقا لأن قلبه طلب مجد الرب ولكنه لم يفهم علوه ، اشتهى قربه مع أنه نسى جلاله لأنه هنا فى الداخل كان يجب أن كلمته هى التى توجه وترشد وتحكم — « فارص عزة » شاهد على أن الله لن يتهاون ويهمل ، وإن ترتيب بيته فى وسط شعبه أمر لا بد أن يعلمهم احترامه . لقد كان الفشل فى احترام ذلك هو سبب تحويل الفرح إلى حزن وخوف — وهنا انتابت داود الحيرة التى دفعته بسبب التأديب إلى البحث عما يتفق مع كلمة الله ، وهذا هو قصد الله من كل تأديب ، أن يعلمنا الالتزام بالطاعة !

وهنا يتساءل داود عن سبب تصرف الله هذا ، وذلك يدفعه إلى أن يتعلم الدقة فى الفحص ، فقد اكتشف سبب الاقتحام من قبل الرب وأقر به بقوله « لأننا لم نسأله حسب المرسوم » ، وهكذا أعاده التأديب إلى كرامة وضعه بأكثر كمال فى المركز الذى قصده له الله وفى فهم طرقه ...

رابعاً : التعطيل لأن المسيرة كلها قد أوقفت

إذ خشى عزة من خطر سقوط التابوت أمسك به ليحفظه ثابتا وهو بذلك يحاول أن يغطى الخطأ الأول — فى وضع التابوت على مركبة تجرها

الثيران ــ بخطأ جديد وهو القيام بسنده عندما اهتز وهنا صعقه التابوت ، فوقع ميتا فى الحال فى نفس البقعة عندما أوشكوا على الوصول إلى المكان المعد لاستقباله ــ ولا شك أن هذا الحادث قد ألقى بظلاله السوداء على المشهد كله ، ولكن الأهم من ذلك أنه أوقف المسيرة كلها ، ترك التابوت حيث كان فى المنطقة المجاورة القريبة من مقره بالعاصمة (أورشليم) دون أن يبلغ مقره هذا .

كأن هذا التوقف أمر محتوم لئلا يقعوا فى أخطاء جديدة أثناء تكميل السير بالتابوت ، فعزم داود أن ينتظر نوراً أكثر يعطيه تعليمات بالنسبة لطريق الواجب مع أنه لو كان انتبه للمكتوب أو استشار الرب كما كان يفعل عند المقتضيات ــ بالأوريم ــ لكان حصل على قيادة سليمة ــ وهكذا ترك التابوت مرة أخرى مدة ثلاثة شهور إلى أن أعيد بالطريق الشرعى وعادت العلاقات الطبيعية .

وواضح لكل ذى عينين أن التقليد دائما يقف عند حده فلا تقدم فيه للمسيرة أكثر من النقطة التى بلغها وإلى أن تحدث استفاقة بين هم أمناء فيحصلون بإخلاص البحث ونزاهته على الطريق المرسوم فينتهى التوقف بالنسبة لهم ويصبحون « التقدميين » فى قلب النظام التقليدى !

• • •

الفصل السادس :

السلطان الإلهي للكنيسة أم الكتاب

جاء الكتاب المقدس بالوحي عن طريق « الإعلان التدريجي » الذي اكتمل وأصبح كاملا بعد جمع الأسفار المقدسة بين دفتيه واعتماد قانونيتها من قبل المجمع اليهودي بالنسبة لأسفار العهد القديم ، والمجامع المسيحية بالنسبة لأسفار العهد الجديد .

وصار لزاما علينا أن نعرف الكتاب المقدس ككل ، وكذلك يتحتم علينا أن نتعرف على الأجزاء التي يتكون منها هذا الكل ، لأن هذا الكتاب أصبح وديعة الله للبشرية خلال كل العصور المتعاقبة وهذا هو مرجع سلطانه أنه منذ أن صار بين أيدينا كاملا وتاماً أصبح التعبير الدائم عن أفكار الله ومشيئته وذلك بحسب سلطانه الإلهي كوحي الله وكلمته . وصار من أعظم واجباتنا أن يسود علينا سيادة مباشرة مطلقة دون أدنى اعتراض من جانبنا نستند فيه إلى شخص ما أيا يكون أو جماعة معينة أيا كان وصفها ومن ثم ليس لقوانين الإيمان أو علم اللاهوت بكل التفسيرات الملحقة به سلطان الحكم إلا فيما يوافق الكتاب المقدس !

وقد دعت هذه الضرورة إلى التفكير والبحث للوصول إلى شرح مقبول لعقائد الإيمان المسيحي لأجل تفسيرها وفقا لآيات الكتاب المقدس وذلك لتعليم الذين قبلوا الإيمان حديثا، ولحماية الإيمان نفسه من الهرطقات التي كانت الكنيسة تصارع ضدها منذ البداءة ، فضلا عن الحاجة إلى استجلاء معاني الكتاب نفسه وفهمها .

ولقد أظهرت هذه المبررات احتياج الكنيسة لتقديم عقائدها وذلك حتى لا تتضارب التفاسير فتتبلبل الأفكار بين مختلف الأفراد ، وكان ذلك هو منشأ ما يسميه البعض « التفسير الرسمى » ! وقد درجت الكنائس القديمة على تقديس التفسير الرسمى لكل منها وأحاطته بهالة من التقديس توجب فرضه وقبوله بلا نقاش ! وبدا مع الزمن أن مثل هذا التمسك المطلق بالتفسير الرسمى كثيرا ما يقف حائلا دون تشكيل العقائد السليمة وفقا لصورة التعليم الصحيح التى يتضمنها الكتاب !

• • •

هذا ما قصده الرسول بقوله « تمسك بصورة الكلام الصحيح » (٢ تى ١ : ١٣) أى الحق المعلن بصورته المكتوبة فى الكتاب المقدس والتى أسبغ عليها سلطانه الكامل بحكم مصدرها الإلهى الأعلى مما يستوجب احترامها كأمر واجب يليق بالسلطة الإلهية التى قدمتها ...

وواضح أن من مزايا هذا الحق أنه غير متروك ليكون تحت رحمة أية جماعة مهما كانت ، لأن مسئولية كافة الجماعات على الإطلاق إنما هى قبول الحق والخضوع له كإعلان آت من الله نفسه — فليست الكنيسة هى ينبوع الحق ، لأنه من البديهى أن الكلمة قد جاءت متقدمة على الكنيسة بل هى التى جمعت الكنيسة ، حتى أن بنيان الكنيسة نفسه يتوقف الآن على الكلام الصحيح الوارد فى الأسفار المقدسة ، أى الكتاب المقدس !

ومن ثم غدا هذا الكتاب — كتاب الله — مركز وحدة المسيحيين ودستور المسيحيه الأعلى الشامل للحق الكامل من جميع الوجوه ، وأحكامه وفقا لنصوصه قاطعة نهائية لا ترد ولا تناقش بل هى واجبة النفاذ ملزمة لكل من يعنيه الأمر حتى إنه يتوقف عليها المصير الأبدى فى اليوم الأخير ...

ومهما يكن من أمر اختلافات التفسير بين طوائف المسيحية ، والتى أغلبها — عند التحليل الصادق — يظهر غير جوهرى أو اختلافا فى وجهات نظر ، بالإمكان عند دراستها الوصول إلى تقابلها وتقاربها ، إلا أنه مع ذلك يبقى الكتاب المقدس فريداً وحده كميزان الحكم فيما يتصل بتلك الاختلافات لدى كل ذى عقل مستنير وضمير متحرر باعتبار أن الكتاب المبارك هو المصدر الرئيسى للعقيدة المسيحية ، فما لا يوجد فى الكتاب المقدس وكذلك ما لا يتفق مع نصوصه الصريحة لا يجب الإيمان به أو الدفاع عنه بأى حال من الأحوال حيث لا مكان للتمسك إلا بأقوال الوحى وما ينسجم مع مفهومها تماماً .

والذى يجب أن نعلمه علم اليقين هنا أن « احتكار » تفسير الكتاب المقدس ليس وقفا على فئة معينة أيا كانت ادعاءاتها والسلطان الذى تزعمه لنفسها ، ومن ثم فلا قيمة لتفسير الكتاب فى ضوء عقائدها ولا بإعلائها شأن هذه العقائد واعتبارها واجبة الصحة وفرضها كما لو كانت لا تقبل الفحص ولا يجوز امتحانها ، فهذا أمر باطل لأن الحكم فى صحتها أولا وأخيرا إنما يرجع فيه لنصوص الكتاب المقدس نفسها والذى حذر من أية زيادة عليها أو حذف منها . ومن ثم فإن الحصول على المفهوم الصحيح لأية عقيدة عند فحصها يتطلب الإخلاص التام الغير مشوب بالتحيز أو التعصب دون التمسك بأى تفسير ينسب إليه سلطة الكتاب سواء كان كنسيا أو شخصيا ، وهذا ما يغفله الكثيرون ممن يقدسون تفاسير مذاهبهم وقادتهم ويسبغون عليها سلطة الكتاب المقدس !

أما كيف يصل إلينا حق الله الذى فى الكتاب المقدس ؟ فالجواب أنه يصلنا من المسيح « المعلم الوحيد » عن طريق الكلمة وهى أمانة قد أودعها

للمعلمين الذين يقيمهم للكنيسة ليقدموا لها عنه « الحق الكامل » — وهذه هى مسئوليتهم أمامه التى سيحاسبهم عنها عند وقوفهم أمامه !

لقد أخذت الكنيسة الإسمية بتقاليدها وأنظمتها مكان المسيح وصارت هى « المعلم » بدلا منه — ونسبت لنفسها سلطان التعليم والتفسير ، وهى فى ذلك لا تعلم نفسها بل قد ميزت بين الاكليروس الذى صار له السلطان وحق التعليم والتفسير وبين الشعب الذى وصلت به الحال إلى حرمانه من قراءة كلمة الله وتحريم حقه فى تفسيرها لنفسه . فعلت الكنيسة ذلك ونسيت أن الله لم يمنحها هذا السلطان ، ولا أعطى لبطاركتها حق العصمة الذى ينسبونه لأنفسهم ، لأن للكنيسة رأساً واحداً فقط هو المسيح وهو صاحب السلطان الوحيد لتعليمها وعليها أن تتعلم منه وتنفذ تعليمه !

لقد تمثل وضع الكنيسة الإسمية فى « إيزابل » زوجة ملاك كنيسة ثياتيرا التى تقول « أنها نبية حتى تعلم وتغوى عبيد الرب » والوحى يكشف عنها هنا مبينا حقيقة عملها كمن تتعهد تعليم عبيد الله باعتبارها المعلم السماوى المعصوم . .

ومع أن الوحى لم يمنع من وجود نبيات فقد وجدت فى العهد القديم منهن مريم ودبورة وخلدة وزوجة إشعياء وفى العهد الجديد حنه وبنات فيلبس مع الإشارة إلى حق المرأه فى التنبؤ الوارد فى رسالة كورنثوس إلا أن إيزابل هنا موصوفة بأنها هى التى تقول بأنها نبية ، فهى التى تسمى نفسها هكذا أى أنها امرأة تتلقى وحيا أو إعلانات جديده فتدعى أنها منحت رؤى معينة أو إنارة خاصة أنكرت على الرسل أنفسهم وبدأت تنشر ما تدعى الحصول عليه على الملأ ... وواضح أن هذا ينطبق على كل ادعاء عام أو خاص فى إعلانات أو تصريحات أو قرارات لا تتفق مع المكتوب بل تخرج عن مضمونه ، ولذلك يذكر عنها الوحى بأنها تدعى النبوة حتى تعلم ، ويؤخذ من النص

اليونانى الوارد فى اتى ٢ : ٢٠ بأن المرأة لا تعلم باستمرار كوظيفة وليس المقصود هو المنع البات المطلق بل ألا يكون لها مكانة أو وظيفة « المعلم » وهذا ليس لأسبقية آدم وغواية حواء فقط بل كإثبات للمكان الذى يجب أن تكون فيه الكنيسة — فليس للكنيسة أن تعلم ولا أن تدعى بذلك بل عليها أن تتعلم ، ليس أن الكلمة هى السابقة فى الوجود فحسب بل ولأنها عندما تعلم تأخذ مكان المعلم الوحيد رأسها « المسيح » وهذا ما لا يليق بها لأن مكانها هو الخضوع له وهو الذى يعلمها بواسطة الكلمة التى يقدمها لها بالروح القدس عن طريق خدامه الأمناء ...

وأما صيحة الكنائس التقليدية — وخاصة البابوية — المعروفة والتى تقرر بأن تصريحات البابا معصومة وما تفرضه الكنيسة واجب بالقول : « اسمعوا للكنيسه الأم لأنها غير قابلة للضلال فى التعليم وفى التصرف ، فإنها صيحة كاذبة لأنها تنسب السلطان الإلهى لخرافات وضلالات عديدة مخالفة لكلمة الله وغير موافقة للعقل — وهكذا أعطت لنفسها « سلطة معصومة » مع أنه بحسب كلمة الله ليس للمرأة هذا الحق أن تعلم وفى الكتاب الكنيسة دائما هى « المرأة » وليست « الرجل » لأنها عروس المسيح الذى منه يجب أن تأتى الكلمة — فادعاؤها هذا يصور لها سلطة مستقلة عن سلطة المسيح ويمنعها من الخضوع له : إنها المرأة فى مكان الرجل ، الكنيسة وقد حلت محل المسيح ...

والنتيجة المشئومة نراها فى أنها رغم كونها تدعى النبوة وتدعى أنها تنطق بسلطان الوحى من الله ، إلا أنها فى نفس الوقت تغوى « عبيد الله » وتدفعهم إلى أن يزنوا (الزنى الروحى بالأكثر) ويأكلوا ما ذبح للاوثان ، إنها تضع ختم الله على إثم مرعب . لقد حولت عبيد الله عن الحق إلى الخرافات ، وعن المسيح إلى الوسطاء والشفعاء ودفعت بهم إلى الزنى (فصل علاقتهم بالله)

والوثنية (التعبد لغير الله) وهكذا قد تم بذلك الاندماج مع العالم بمزج السلطة الدنيوية بالروحية وعبادة الأوثان التى كانت صفة إيزابل قديما نراها الآن فى السجود للتماثيل المختلفة ، وقدتم بذلك مخالفة الوصيتين الأولى والثانية رغم الاستناد فيه إلى منطوقات إدعائية منسوبة إلى الوحى !

لقد أنزلت إيزابل (الكنيسة الإسمية) المسيح (كابن الله) ورفعت نفسهاعليه برفعهامريم أمه عليه ـ فقالت : أليست هى أحق ؟ وأليست هى أم وبمقدورها أن تؤثر عليه بل أنها أم الله ملكة السماء ؟ — وهى لا ترى فى ذلك أدنى تجديف ، لأنها فعلت ذلك بسلطانها المزعوم ـ فقـــد ركنت كلمته لتدخل كلمتها وادعت لكلمتها ذلك السلطان الذى أنكرته على كلمة الله نفسها إنها تخبرك بأنك لا تستطيع أن تفهم كلمة الله إن لم تسمع لتعليمها بقولها : « اسمع للكنيسة » وتغلق باقى الكتاب وتقول (أنا هذه الكنيسة فلتسمع لى أنا الوحيدة الجامعة المقدسة الرسولية) وهى تعلم أن لاشىء من هذه الأوصاف ينطبق عليها ـ قدتنكر نحن هذه الأثمار الناشئة من أصل البابوية هذا . ولكن ألا يجد هذا الأصل نفسه تربة لدينا فإن كل طائفة مهما صغرت تدعى لنفسها تعاليم تتمسك بها وتفرض على أعضائها هذا التمسك ـ نعم إنها لاتدعى لها العصمة ولا تركن الرجوع لكلمة الله لإثبات الحق ولكن مع ذلك تتمسك بمبدأ « إن من حق الكنيسة أن تعلم » — هذا هو المبدأ الرومانى بعينه — إحلال سلطان الكنيسة محل سلطان المسيح ، وهى تريد من الذين ينتمون إليها أن يخضعوا لتعليمها مع أن هذا مناقض تماما لكلمة الله ! وبحسب ما أثبتناه فى الصدارة نسأل ما هى الكنيسة ؟ إنها جماعة شعب الله ، إنها جسد المسيح وهى تشمل المعلمين والمتعلمين على السواء ، الأصغر والأكبر ينتميان لها معا ـ فكيف يكون ممكنا إذا أن هذه الكنيسة تعطى منطوقات لها سلطان مطلق ؟ ومن تعلم ؟ نفسها أم غيرها : فان كانت الكنيسة هى المعلم ، فيكون

الذين تعلمهم هم الذين فى الخارج ، فمن يعلم الكنيسة إذا ؟ ثم إن هذا التعليم الذى ترتبط به إنما هو منسوب لأناس لو كانوا عائشين فى الجيل الحاضر لما اعترف لهم بأى سلطان ، فمن الذى أعطى لمعلمى الماضى سلطانا كهذا ينكره على معلمى اليوم ؟ أليس لنا نفس الروح الذى كان لهم ، ؟ ونفس الكلمة التى أنارتهم ؟

ولما كانت العصمة لا تتجزأ فقد اعتبرت منطوقات الكنيسة معصومة فى كل العصور ، وهنا نجد أن صوت الكنيسة انما يعنى صوت البابا أو صوته ومعه الكرادلة والأساقفة وليس على العلمانيين الا القبول والطاعة فقط ؟ فاذا قيل ان الكنيسة انما تعلم عن طريق معلميها وجب الانتباه الى أن هؤلاء المعلمين ليسوا هم « فم الكنيسة » بل « فم المسيح » بالروح ، إنهم من ضمن عطاياه للكنيسة ، ولكن ذلك فى نطاق الكلمة والروح أى المسحة التى تعلمنا كل شىء (ايو ٢ : ٢٠ و ٢٧)

نعم هناك عصمة ممكنة لكل مسيحى ، إنها عصمة الروح لا الكنيسة ولا الانسان أيا يكون — ومن ثم فمهما يكن مركز المعلمين ، فان أسمى الأعضاء فى الجسد لا يمكن أن يقول لأدناها « ليس لى حاجة إليك » وهذه هى مهمة المعلم لا أن يعطى سلطة للحق أو يقرر ما هو حق للاخرين بل أن يضع أمامهم ما يحمل سلطانه كحق إلهى عليه وعليهم على حد سواء — وهو أسمى من إقرارات المجامع وقوانين إيمانها . ومع أنه قد لا يكون هناك إهانة مقصودة لكلمة الله ، إلا أنه قد تكون هذه هى الحقيقة بالنسبة لنا جميعا — ونحن الذين بين أيدينا الكتاب مفتوح مسئوليتنا أعظم وفضلا عن ذلك فان هناك من يتصور عدم امكانية أن يعلم رجال الله بما هو كاذب ولكن الحق يقال ان صلاح الانسان لا يقوم مقام حق كلمة الله قط ومن ثم فلا تستمد كلمة الله سلطانها لأن أناسا صالحين يتكلمون بأسلوب مختلف . فما أكثر ما تتناقض تعاليم البشر ولكن الله أعطانا مع كلمته روحه ليعلمنا اياها : فليس

صلاح البشر هو ضامن التعليم ، ولا وجه لمقارنة الآراء البشرية أيا كانت بحق الله حسب سلطان كلمة الله المطلق !

ومن المعلوم أننا نحتاج إلى وضع يقيني ثابت فى وجه الأبدية ، وقد يكون تأثير العقيدة الجانبية أنها ترفع من أمامنا المقياس الحقيقى للحق وتضع شيئا آخر مكانه — أليس فكر الله هو الأوسع واليقيني مما لدى البشر ؟ كلمته أبسط وأوضح مما يمكن للعقيدة البشرية أن تفعله ؟ وإلا فكأن الله لم يفعل أو يهتم بنا بما نحاول أن نفعله ونظهر فيه الاهتمام بعضنا ببعض — ألم تكن تلك عصوراً مظلمة عندما فرضت الكنيسة آراءها خلافا لكلمة الله! والآثار إلى اليوم بادية فى محاولة تفسير الكتاب بطريقة توافق العقيدة خلافا لما هو

واجب من فحص العقيدة فى ضوء الكتاب — وهذا هو سبب فقدنا اسمنا كمسيحيين وتمجيد اختلافاتنا وتمزيق جسد المسيح إلى عدة أجساد منظمة بشريا لا إلهياً ، حتى وصل الحال بالبعض أن حسبوا أن الحد غير منظور ولا يمكن أن يوجد على الأرض بتاتا ، فهل نتشكل وفق هذه الأوضاع المصطنعة أم نخرج خارج الكنيسة ؛ إذ مهما قررت الكنيسة ليس لها عصمة تقيها من الضلال ، فهل يعطى الله سلطانا حيث يكون هناك العجز عن استخدامه ! ؟

لقد تبع الانقسام التشويش والشك إلى أن ظهر الإلحاد الذى ادعى بأنه لا يوجد شيء يقيني ، بينما تنظر إيزابل حولها من كرسى النبوة وتقول : ألا تعنى « بابل » تشويش ، وإذاً أيهما أفضل الاستماع إلى أصواتكم العديدة (هكذا يتهكم التقليديون على مذاهب البرتستانتية) أم إلى صوتى الواحد ! » ولكن أليست أصوات البروتستانتية العديدة علامة بل جواب الله على الوحدة المظهرية الأرضية الجماعية التى تجسمت فى بابل ، وعند الشروع فى بناء برجها الذى أرادوا أن رأسه يصل إلى السماء (كصورة مسبقة لما تحاوله الكنيسة التقليدية من الذهاب إلى السماء بمجهوداتها الذاتية) وإننا فى ضوء هذا كله لنا

جواب واحد وهو : « حقا ما أمجد الإقرار بسلطان المسيح وكفاية كلمة الله وحدها فى تجميعنا وتوحيدنا »

والآن ما هو جوابنا وقد رأينا الكنيسة قد قفزت وأخذت مكان المسيح وهى تطالب بالطاعة الواجبة لها فقط ؛ أهو الاستسلام - كما يفعل كثيرون - فنصمت ولا نقول شيئا ، أم الأمانة للمسيح والحق حتى لا نفرط فى سلطانه فننكر بذلك اسمه (أى شخصه ومركزه على الوجه المطلوب) - بالتأكيد كل شخص أمين القلب يقول « لا » فليكن الجواب عمليا ومسموعا . ولنرجع إلى بساطة وبركة الاستماع لكلماته وعمل مشيئته (لحمل النير الذى له وهو هين ويختلف تماما عن النير الثقيل الذى اخترعته الكنيسة بدل نير المسيح) ولنسمع الصوت النبوى إذ يأتينا عبر القرون صادقا وقويا « من له أذن للسمع فليسمع ما يقوله الروح للكنائس »

. . .

والآن فى ضوء هذا كله وفى الحقبة الأخيرة من تاريخ الكنيسة أما آن الأوان لأن نكشف عن هذه الأوضاع المقلوبة التى سلبت من المسيح سلطانه وصورت تعليمه الصحيح كتعليم خاطىء قد استبدل بالتعليم المغلوط الذى تقدمه الكنيسة الاسمية بوجه عام وتصوره الكنائس كالتعليم الصادق الأمين ويا للهول .. أفليس ذلك هو سر الادعاءات المتعالية والانحلالية المتحللة من العلاقات الشرعية مع الله والآخرين ، إذ أين هو تعليم المسيح الذى يربط النفوس بالحق الأبدى رباطا لا انفكاك فيه ولا انتهاء إذ هو الدستور الدائم والقانون المعصوم الذى يستحق أن يتقيد به الضمير الحى أبديا والذى يستوجب قبوله بغير جدل أو مناقشة — هذا هو كتاب الحياة صاحب السلطان الأبدى حتى تعجب أحدهم عند تأمله بالقول « إنى أندهش كيف يضل الناس وعندهم الكتاب المقدس »

وواضح بلا شك أن كل من لا يحترم كتاب الله ويقر بسلطانه كالحق

الإلهى الوحيد والمباشر فإنه سيتعرض للسقوط من ثباته وقد تحرفه بدع الهلاك التى يدسها أصحابها لهلاك أنفسهم ...

أما الأمناء فى هذا الجيل كما كان فى سائر الأجيال الماضية فإنهم ملتزمون بأن يكونوا ضمن المتعلمين من الله حسب وعد السيد المسيح بذلك بقوله : « ويكون الجميع متعلمين من الله » — (يوحنا٦ : ٤٥) وبعدئذ يتأهلون لحمل رسالته ، لأن الذى أرسله الله يتكلم بكلام الله (يو ٣ : ٣٤) ورسالتهم لذلك حية إذ هم يحملون الكلمة الحية الكاشفة بسلطانها الكامل للنفوس التى تقبلها فتصلح بها حالتها وتتغير .

أليس هذا بعينه ما قاله الله قديما لعبده أرميا (بأن من معه كلمتى فليتكلم بكلمتى بالحق ، لأنه ما للتبن مع الحنطة) يقول الرب (فاذا أخرجت الثمين من المرذول فمثل فمى تكون) لأنه أليست هكذا كلمتى كما يقول الرب وكمطرقة تحطم الصخر (أر ١٤ : ١٩ ، ٢٣ : ٢٨ و ٢٩) وبذلك تفعل كلمة الله بسلطانها النارى فى القلوب ويتم الوعد القائل لنفس النبى المذكور ، وتكون كلمتى فى فمك نارا وهذا الشعب حطبا فتأكلهم .

إن هذه الكلمة بسلطانها الالهى الفريد هى التى تحدد المصير من الآن فالذين يرفضونها ولا يقبلونها تنفض الأحذية من أتربتها عليهم فيكون لسدوم حالة أكثر احتمالا مما لها فى يوم الدين ، وهذا ما قاله السيد لرسله بأن من يقبلكم يقبلنى ومن يرذلكم يرذلنى ، ومن يسمع منكم فقد سمع منى ؛ ومن لا يسمع منكم فلم يسمع منى ، الحق أقول لكم إن كلامى هو الذى يدينه فى اليوم الأخير هكذا سيتحدد الحكم على كل نفس من جهة مصيرها الأبدى حسب الموقف الذى تتخذه من كلمة الله التى ينطق بها خدام الرب الأمناء الذين هم كفمه وويل لمن يتحداهم ..

ليت التعاليم الشخصية والكنسية ترحل لتعطى مكانها لتعليم الكتاب وتعليم المسيح ضمانا لتحقيق الحق وتأكيداً لسلامة المصير الأبدى!

الفصل السابع :

أثر متاهات التفسير على الخلاص

لقد بذلنا كل الجهد فى شرح جوانب عديدة من قضايا هذا الكتاب ولقد بحثناها دون محاباة لأجل الحقيقة فى ذاتها وتبرئة لضمائرنا حتى لا تستكين كما حدث للكثيرين من حولنا فتبتعد عنا رؤية معالم طريق الحق الواضح والصريح والواجب الالتزام بالضرورة لمن يبتغون الهداية بكلمة الله ، والوصول إليه تعالى بواسطة طريقه المرسوم فى كتابه العزيز !

ولعل الذين يعتمدون كثيرا على الطقوس والسنن ظانين أن الديانة تقوم بها ، يتوهمون . إننا نضر الديانة بما كتبناه عوض أن ننفعها . فنحن نلتمس من مثل هؤلاء أن يتذكروا أن ديانة المسيح ديانة روحية . فإن السيد له المجد قد قال : « إن الله روح والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغى أن يسجدوا » (يو ٤ : ٢٤)

وقد ورد فى الكتاب المقدس أيضا . « لأنه ليس كما ينظر الإنسان . لأن الإنسان ينظر إلى العينين وأما الرب فإنه ينظر إلى القلب (١صم ١٦ : ٧) وفى توبيخ المسيح للعبادات الخارجية التى لم تصدر عن القلب مع أنها قد تكون مقرونة باحتفال عظيم نجده أيضا يتكلم بهذه العبارة الشديدة حيث قال : يا مراؤون حسنا تنبأ عنكم إشعياء قائلا « يقترب إلى هذا الشعب بفمه ويكرمنى بشفتيه وأما قلبه فمبتعد عنى بعيداً . وباطلا يعبدوننى وهم يعلمون تعاليم هى وصايا الناس » (مت ١٥ : ٧ - ٩)

ويعلمنا الكتاب المقدس - بحسب العينات التى قدمناها هنا كأضواء على

طريقه الصحيح أن القلب لابد منه فى العبادة المقبولة ويحذر الناس من اتخاذ الطقوس الخارجية ووضعها مكان العبادة القلبية ، وقد كان ضلال اليهود من هذا القبيل عظيما ، لأنهم أبدلوا العبادة الروحية بالطقوس الخارجية الفارغة ، وأما ديانة المسيح فقد كانت بسيطة جداً من حيث طقوسها ولم تزل كذلك فى الأجيال الأولى بعد أيام الرسل وهذه هى نفس الديانة التى نحامى عنها ونريد أن نعلمها لكل إنسان على قدر إمكاننا ، متيقنين من كلام الله أنها هى الديانة الوحيدة التى يخلص الناس بها !

وإذ قد ثبت من بحثنا هذا أن الكثير من الطقوس والتعاليم قد حدثت بعد المسيح بأجيال وليست من الديانة التى سلمها المسيح لتلاميذه ولكنيسته ، فلا يحسبن أحد من ذلك كأننا أعداء للديانة أو التقوى الحقيقية ، بشرط أنهما يجب أن يستندا إلى كلمة الله إذا شئنا أن نسبغ عليهما الصحة ونتأكد بذلك من سلامتهما ! وإننا من جهة أخرى إذا سلبنا عن شىء ما ، مالا يختص به لا يكون ذلك علامة بغضة بل علامة المحبة التى تجتهد فى جعل ذلك الشىء خالصا نقيا .. وهذا هو نفس العمل الذى قصدناه فى هذه الرسالة واجتهدنا فيه بما فى وسعنا ، لأننا دائما نحامى بكل غيرة ونشاط عن التقوى الحقيقية ، لأن المسيح وتلاميذه قد علمونا بأن ذلك هو الطريق الوحيد لنوال السلامة الحقيقية فى هذا العالم والتمتع بالسعادة الأبدية فى العالم الآتى !

ولهذا نرى أنه يجب على كل واحد أن يكون نقى القلب وقد أثبتنا بما فيه الكفاية وأكثر بأنه كما أن القداسة الحقيقية لا تقوم بكثرة الطقوس والسنن ، وكذلك لم تتركب الديانة منها على مدى أكثر من ثلاثة قرون بعد المسيح وإن المسيحيين الأتقياء الذين ماتوا شهداء خلال تلك القرون لم يعرفوا هذه الطقوس بل عاشوا وماتوا وخلصوا بدونها . هذا وإن غايتنا الوحيدة

هى « إظهار الحق كما هو فى يسوع » طالبين من المولى عز وجل أن يجعل من هذه الرسالة واسطة لانتشار حق الإنجيل « الإنجيل الكامل » الذى ائتمننا الله سبحانه عليه وسينيلنا المثوبة إذا حفظنا الأمانة !

. . .

يتبين مما تقدم أن الديانة المسيحية فى الثلاثة القرون الأولى كانت بسيطة خالصة جداً . فإن طقوسها واحتفالاتها كانت قليلة وبسيطة وكانوا يتجنبون فيها الزخرفة والعظمة . حتى إنه لم يكن لهم أبنية مخصوصة للعبادة إلى القرن الثالث (تاريخ كنسى أوسابيوس كتاب ٨ رأس ٢ و ١٣) بل كانوا يلتزمون أن يمارسوا العبادة فى البيوت والكهوف والمغاير ، وكان من شأن عبادتهم التأثير فى القلب بواسطة الخشوع والبساطة الموجودة فيها والتى لم تكن تدهش العقل بكثرة الطقوس والاحتفالات والزخارف والتى لاتأثير لها على القلب هذه الطقوس والزخارف التى دخلت المسيحية من الوثنيين الذين كانوا معتادين على الطقوس الكثيرة فى عبادتهم الوثنية فحسبوا عبادة المسيحيين عارية وخالية من زخرف فكانوا يعترضون عليها من هذا القبيل ، ولكن تعاليم الكنيسة الأولى كانت غالبا مما يوجد له برهان وسند فى كلام الله ولم يكن هناك أى إدعاء بأن آراءهم أو أعمالهم تضاد وصايا الإنجيل التى تتلى عليهم فى اجتماعاتهم. فإنهم اتخذوا لهم مرشدا كلام الله لاوصايا الناس واستحساناتهم ، ولم يبطلوا أوامر الله بتقليدات بشرية !

ولكن مع أن الديانة المسيحية كانت فى أول الأمر بسيطة جدا إلا أنه قد حصل لها تغير كبير فى القرن الرابع ، فإنه بعد ارتقاء قسطنطين الكبير العرش قد زيدت زيادات كثيرة على ماكانت عليه قبلا ، من جملتها إطالة العبادة فى الكنيسة واستعمالها باحتفالات وزخارف خصوصية ، وليس خافيا على من

يريدون الحقيقة أن أكثر هذه العوائد قد ابتدأ من زمان قسطنطين وبعده ، وجميع مؤرخي الكنيسة يشهدون بذلك . وكثير منها نقل عن عبادة الأوثان نفسها فإن « شلاغل » العالم الكاثوليكي المشهور يقول : « لاشك أن قسطنطين ارتكب غلطات كانت في نتائجها مضرة للديانة المسيحية لأنه أعطى الإكليروس الإنعامات القديمة التي للكهنة الوثنيين وكان يفرح عندما يرى الأساقفة في درجة عالية من الزخرفة والعظمة إذ كان يظن أنه بمقدار مايكون للأساقفة من الاعتبار يزيد ميل الوثنيين إلى قبول الديانة المسيحية ، وهكذا أدخل محبة العظمة والافتخار بين الإكليروس » . (أنظر مسهيم مجلد ١ وجه ٢٦٣) ثم يقول : « فلما قهرت الكنيسة أعداءها الآن (أي في القرن الرابع) وصارت غنية وقوية ، ظهر مفعول ذلك في ازدياد مجد طقوسها وكذلك كثيرون من المحدثين في الإيمان مازالوا يميلون إلى العظمة والزخرفة في أمور الديانة ، ثم يتشكى قائلا : إن كثيرين قد خضعوا لهـــذا الميل الوثني وذلك لكي يربحوا الوثنيين بأوفر سهولة » (مدراس ٥ فصل ٩٦) .

وأغسطينوس الآب المشهور الذي عاش في أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس يقول في رسالته إلى نيواريوس رسالة ١١٨ « إن النير الذي وضع قديما على اليهود كان أخف من النـــير الموضوع على كثيرين من المسيحيين في عصره » .

« ومسهيم » المؤرخ الكنسي يقول في تاريخه للكنيسة كتاب ٢ رأس ٤ فصل ١ إن الأساقفة أظلموا نور الديانة الحقيقية وأضعفوا قوتها بواسطة تكثير عدد الطقوس والعوائد التي أظهر بها في القديم اليونانيون والرومانيون تقواهم واحترامهم نحو آلهتهم الكاذبة ظانين أن الشعب يقبلون الديانة المسيحية بأوفر سهولة إذا رأوا الطقوس التي تسلموها من آبائهم لم تزل موجودة في

الديانة المسيحية دون تغيير ».

وقد نقلت أشياء كثيرة إلى الديانة المسيحية حتى إن المؤرخ المذكور يقول إنه يوجد فرق قليل بين عبادة المسيحيين وعبادة الوثنيين لأن فى الاثنتين بدلات فاخرة وتيجانا وجواهر كريمة ومنابر وعكاكيز واحتفالات وتطهيرات وأشياء أخرى مثل هذه لاتحصى .

ويمكن ذكر شهادات أخرى كثيرة من المؤرخين الصادقين لإثبات هذا الموضوع ولكن لاحاجة إلى ذلك لأن القضية ثابتة واضحة لايمكن إنكارها ولا تحتاج إلى أكثر مما قيل .

. . .

ينتج مما تقدم بيانه أن هذه العوائد والتعاليم المخترعة والمدخلة إلى الكنيسة بعد المسيح ورسله بسنين كثيرة هى غيرضرورية للديانة المسيحية . وإذا سلمنا أنها ضرورية كما زعم البعض فيكون تبعا لذلك أن المسيح والرسل تركوا الديانة إلى لأجل تأسيسها أتوا إلى هذا العالم غير كاملة . فيكونون لم يعملوا إلا نصف عملهم فقط . وبما أنهم لم يأتوا من أنفسهم وإنما أرسلوا من الله فتكون النتيجة أن الله لم يتمم عمله هذا بل تركه ناقصا جدا ، بعكس أعمال الله فإنها فى جميع أجزائها بما فى ذلك أعمال الطبيعة — كاملة وكل مايتعلق بها فى غاية الكمال ، رغم أنه محكوم بزوالها سريعا ، فهل يظن أن الرب وتلاميذه قد تركوا الديانة المسيحية ناقصة حتى يأتى من جاء بعدهم بمئات السنين لتكملتها ... هل يصدق أن هذه الديانة التى بواسطتها تخلص النفس من اهلاك الأبدى وتدخل السماء ، قد خرجت من أيدى مؤسسيها الأطهار غير كاملة ؟ وهل يتصور أن الناس الجهال فى ذواتهم الغير الكاملين يمكنهم أن يحسنوا هذه الديانة ويكملوها ؟

وإذا فرضنا جدلا أن هذه العوائد الدخيلة أجزاء جوهرية للديانة المسيحية فماذا أصاب أولئك المسيحيين الأولين الذين ماتوا فى الثلاثة القرون الأولى وقبل أن تدخل هذه الأشياء فى الكنيسه - ألم يخلصوا ؟ أو لم يكونوا مقبولين لدى الله رغم أنه لم يكن موجودا عندهم شيء من كل هذه الأمور المستحدثة التى دخلت المسيحية فيما بعد ؟ أما نقر أنهم رغم كونهم عادمين لهذه الأشياء إلا أنهم كانوا حاصلين على درجة سامية من التقوى ؟ فتلك الأيام هى التى مات فيها جماهير غفيرة من الشهداء لأجل محبتهم للمسيح وملكوته ... ولم يوجد قط زمان منذ ابتداء الديانه المسيحية كانت فيه التقوى ظاهرة وخالصة كما كانت حينئذ . كان ذلك الوقت هو عصر الإنجيل الذهبى ... فاذا كانت مثل هذه الدرجة السامية من التقوى موجودة حينئذ بدون هذه العوائد فانه يمكن أن يكون ذلك الآن . وكما أنهـــا لم تكن فى تلك الأزمان ضرورية للقداسة والخلاص لا تكون ضرورية الآن أيضا . وبما أنه قد حدث عقب دخولها انحطاط محزن فى طهارة التعليم وقداسة السيرة يتضح جليا أنه فضلا عن كونها غير ضرورية هى مضرة جدا . ودخولها كان سببا قويا لانحطاط شأن الديانة المسيحية كما يتفق فى ذلك جميع مؤرخى الكنيسة الأتقياء !

فانهم قد أكدوا أن أناسا من آباء الكنيسة المعتبرين جدا عند الجميع أمثال غريغوريوس المنور وجستنيان الشهيد وإيريناوس وترتوليانوس وأوريجانوس وأوغسطينوس وأثناسيوس وغريغوريوس النزينزى، وعريغوريوس النيسى ويوحنا فم الذهب وباسيليوس الكبير وآخرين كثيرين لم يكن ممكنا لهم قط أن يعيدوا عيدا لإكرام مريم العذراء لأنه لم يكن معروفا مثل هذه الأعياد فى أيامهم ولا أن يدعوها شفيعة لأنها لم تكن تعبد بنوع خصوصى فى عصرهم!

ولا أمكن أن يستعملوا الإيقونات أو يحاموا عن استعمالها لأنها دخلت بعد زمانهم بسنين عديده ولا كانوا يؤمنون بتعليم الاستحالة ولا ما يسمونه

الآن بسر الاعتراف للكاهن ، لأنه كان قد مضى على انتقالهم مدة طويلة قبل أن تظهر هـــذه التعاليم وتصير عمومية ـ ولا علم أحد من هؤلاء بضرورة الأصوام المعينة لأن هذه قد حكم بها بعد موتهم بزمن مديد ، نعم ربما صاموا مرارا كثيرة بمعنى أنهم امتنعوا عن جميع أنواع الأطعمة وكرسوا الوقت لعبادة مخصوصة ـ وهذا هو الصوم الحقيقى لا مجرد تغيير الطعام !

وهم بالإضافة إلى ما ذكر لا يمكن أن يكونوا قد نطقوا باللعنات مع الحرم لأن إلقاء اللعنات على المحرومين ظهر بعد زمانهم !

ورب قائل يقول إذا كانت الأخبار المتقدمة صادقة تكون الديانة المسيحية عارية من كل شيء فنجيب إن حوادث الإنجيل وتاريخ الكنيسة هى على هذه الصورة ولا يمكن تغييرها . ومقصودنا إنما هـو أن نذكر الحوادث كما حدثت فى القرون الأولى للديانة المسيحية . ونحن لم نعر الديانة من أدنى شيء كان مختصا بها فى أيام المسيح ورسله وفى القرون التابعة لها ، لكننا إنما أخبرنا عنها كما كانت فى أول ظهورها غير مزيد عليها بشيء من اختراعات البشر . وكانت حينئذ أكثر تأثيرا وتقديسا فى الذين تمسكوا بها . وإذا كانت بساطتها حينئذ مجدا لها ، فترجيعها إلى حالتها الأولى يجعل لها أيضا مجـــدا

نظيره . فان الديانة القلبية لا تزدهر وسط طقوس واحتفالات للميل البشرى نحو ممارسة تلك الطقوس وافترانها بالتقوى الصورية الأمر الذى يدعى حتما إلى الاكتفاء بالخدمة الخارجية من دون الاهتمام بالقداسة الداخلية .

ولكن الخدمة والطقوس التى لا تصدر منها قداسة القلب فهما كانت مقبولة عند الناس فهى ليست كذلك عند الله ، ولا منفعة لها البتة ، إذ أنه تعالى يطلب من الساجدين له أن يسجدوا بالروح والحق ، ويكره الخدمة التى تقوم بمجرد طقوس واحتفالات خارجية ، والذين يتشكون منا لأجل بساطة

عبادتنا فهم إنما يلومون الإنجيل نفسه ، والعناية الإلهية ، وعوائد القرون القديمة ، فإنهم يتنازعون مع صاحب الحق لا معنا . لأنه تعالى قد وضع الحق كما شاء ، وأما نحن فغايتنا الوحيدة إنما هى أن تقبل الديانة المسيحية وتمارس على حقها كما تركها مؤسسوها المسيح ورسله .

• • •

فان الواسطة العظمى لخلاص الناس ليست هى حفظ الطقوس والسنن الخارجية بل هى حقائق الإنجيل السامية إذا بشر بها بوضوح وأمانه وغيرة ومواظبة حسب بساطتها الأصلية فترافقها قوة روح الله القدوس ... وهذه هى صلاة المسيح لأجل تلاميذه : « قدسهم فى حقك . كلامك هو حق » (يوحنا ١٧ : ١٧) ولم يقل قدسهم بالطقوس والسنن . وبطرس الرسول يقول إن المسيحيين مولودون لا من زرع يفنى بل مما لا يفنى بكلمة الله الحية الباقية إلى الأبد (١ بط ١ : ٢٣) ولم يقل إنهم مولودون بكثرة الطقوس والاحتفالات الخارجية ...

ولذلك فاننا نريد أن نحول أفكار الناس عن الطقوس البشرية إلى هذه الحقائق المجيدة المقدسة المنقذة ، كما هى موجودة فى الكتاب المقدس ، الذى فى ضوئه حكمنا على مناحى متاهات التفسير بموجب العينات التى قمنا بفحصها تحت هذا الضوء الكامل .

هذا وإننا متحققون أيها العزيز أنك بواسطة الحق الكتابى وحده تقدر أن تنال الحياة الأبدية ، الأمر الذى نرجوه لكل نفس يصل إليها نور هذا الحق فتقرر قبوله واتباعه مراعاة لمصيرها الأبدى .

• • •

أما ما تزعمه الكنائس التقليدية بتفسيراتها الخاطئة لكافة الممارسات

الكنسية وإصدارها الحرومات والأناثيمات (اللعنات) على كل من يخالف لها رأيا أو يحرر نفسه بحثا عن الحق الكتابي وضمانا للحصول على الخلاص ، الأمر الذى كان من اختراعات القرون المتأخرة والذى أضيف إليه من وجه آخر بيع صكوك الغفران ، فانه يخالف ما كان معروفا فى الكنيسة خلال القرون الثلاثة الأولى ، إذ لم يكن الحرم إلا مجرد المنع من شركة الكنيسة بالحرمان من العشاء الربانى والاشتراك فى ولائم المحبة فهذا كان كل ما كانوا يوقعونه على المحروم ، لان الحرم لم يكن قط يوجب على الشخص المحروم خسارة أو قصاصا زمنيا ولا أبديا ... ويذكر فم الذهب أسبابا تنهى عن ذلك وتنفيه وهى :

الأول : إن المسيح مات من أجل جميع الناس من أجل أعدائه ومن أجل الأشرار ومن أجل الذين ابغضوه وصلبوه .

الثانى : إن الكنيسة اقتداء بالمسيح تصلى من أجل جميع الناس .

الثالث : إن الديانة المسيحية بالحرى تلزمنا أن نبذل حياتنا لاجل الغير لا أن نعدمهم حياتهم .

الرابع : إن ذلك اختلاس حق المسيح لأن اللعنات هى بالحقيقة تسليم الناس إلى الهلاك وهذا السلطان يختص بالمسيح وحده .

الخامس : إن الرسل لم تكن لهم هذه العادة عندما كانوا يحرمون أحدا فانهم كانوا يخرجون المحرومون بالشفقة والحزن كما يحدث عندما يقطع الإنسان عضوا من أعضاء جسده .

السادس : إنها عادة منكرة . والمشاهير الآخرون فى ذلك العصر قد وافقوا فم الذهب فى رأيه هذا (موعظة فم الذهب ٧٦ فى الأناثيمات مجلد ١ وجه ٩٠٩ وسيجل مجلد ٢ وجه ١٣٥) .

ومع أن الحرم كان واسطة ضرورية لأجل حفظ طهارة الكنيسة وخاصة لأن بعض المسيحيين قد سقط فى خطايا فظيعة حتى فى عبادة الأوثان أيضا. ولكن هؤلاء المحرمين إذا أرادوا الرجوع إلى شركة الكنيسة يطلب منهم أن يصرفوا مدة من الزمان تحت تأنيب عنيف علامة لحزنهم وتوبتهم، إلا أن ذلك كان اختياريا.

وكان هناك نوعان من الحرم وهما الحرم الصغير والحرم الكبير الأول يقوم بالمنع من الشركة فى المائدة والعبادة، وأما الثانى فكان يوجب قطع المحرومين كلية وطردهم من الكنيسة وهو الذى فى القرون المتأخرة تولدت منه الأناثيمات وصارت مفاعيله هائلة جدا بسبب مساعدة الحكام.

قد بدأت تظهر بهذا الشكل فى القرن التاسع عندما قررت قوانين مجمع بافيا سنة ٨٥٠ عدم قبول شهادة المحروم ولا وصيته الأخيرة، كذلك لم يكن أهلا لشىء من الوظائف ولا للخدمة العسكرية... وتطور الحرم الكبير حتى صار حينئذ أناثيما يحرم الإنسان بجانب الحقوق التى ذكرت الخلاص الأبدى بواسطته (سيجل مجلد ٢ وجه ١٣٦).

ولقد بلغ الحال بهذه الأناثيمات أن المحرومين بها كانوا ملاعين فى المدينة وفى الحقل وفى مخازنهم وفى جثثهم وكانت أثمار أجسادهم وأثمار حقولهم تلعن. فكانوا ملاعين فى دخولهم وخروجهم سواء كانوا فى بيوتهم أو خارج بيوتهم وبالإجمال كانت تجمع عليهم جميع اللعنات التى نطق بها الله على فم موسى ضد مخالفى شريعته، وكان يحكم عليهم بالدفن كالحمير وأن يحسبوا كالمذابل على الأرض وهلم جرا.

ولاريب أن هذه اللعنات مضادة بالكلية لروح الانجيل، فإن العهد الجديد ينطق بالسلام والمحبة حتى إنه عندما طلب إثنان من تلاميذ المسيح مرة منه

أن تنزل نار من السماء فتفنيهم (أى الذين لم يقبلوه) التفت وانتهرهما قائلا «لستما تعلمان من أى روح أنتما ، لأن ابن الانسان لم يأت ليهلك أنفس الناس بل ليخلص» (لو ٩ : ٥٥،٥٦) .

أما فرز مرتكب الخطيئة فى كنيسة كورنثوس وتسليمه للشيطان فانما كان ذلك الاجراء قصاصاً جسدياً عليه لكى يتوب فيخلص أو يموت تحت التأديب فتخلص روحه فى يوم الرب ، أما الأناثيمات المستعملة الآن والتى تحتفظ بها الكنيسة التقليدية — بدون أدنى فاعلية — فغايتها أن تنزل على المجـــرم الغضب الأبدى وتنفى كل رجاء لخلاصه ... فى حين أن استعمال «الأناثيما المقرونة بماران أثا» أى ربط الحرم بمجىء الرب فهو حكم على من لايحبون المسيح وقد صاروا بذلك مستحقين للهلاك وأن الرب قريب وهو عاجلا يجرى هذا الحكم .

ومما قيل فى ١كو ٥ : ٤ يظهر أيضا أن الحرم ليس هو عمل الإكليروس أو عمل إنسان واحد كالأسقف مثلا ولكن هو عمل كل الكنيسة أى أنه يجب أن يصدر الحكم من كل جمهور الكنيسة . هذه كانت عادة المسيحيين الأولين كما يخبرنا التاريخ (سيجل مجلد ٢ وجه ١٢٤) ولكن بالتدريج مع ازدياد قوة الاكليروس كانوا يدعون بأن سلطان الحرم لهم وحدهم ومنعت العامة من الاشتراك فيه . وقد خرج الأمر بهذا المنع من مجمع رومية فى أيام البابا سيماخوس سنة ٥٠٢ (كتاب المجمع لهردوين مجلد ٢ وجه ٩٧٨)

وقد كان يعطى الشخص المحروم فرصة للدفاع عن نفسه ولم يكن يجوز إفرازه إن لم يثبت ذنبه على أيدى شهود يوثق بهم (خطب أوريجانوس فى يشوع) ولكن بعد القرن الخامس كانوا مرارا كثيرة يستعملون سلطان الحرم بغير عدل ولأجل أسباب غير كافية بالكلية فأصبح بذلك سلاحا عالميا يستخدم

لأغراض نفسانية كما هو واضح من بقاء هذه العادة الذميمة إلى اليوم رغم فقدها لكل مايسندها من سلطان سياسى وقوة زمنية !

* * *

ونراه لزاما علينا بعد كل ماشرحناه أن نقرر هنا بطلان سائر النواحى التى اتجهت إليها متاهات التفسير والتى بلغت أقصاها فى « الادعاء بغفران الخطايا عن طريق الاعتراف بها للكاهن - واستكمال هذا الغفران بالصلوات التى تلاحق من يرحلون إلى الأبدية فى الأدعية التى يقدمها له الكاهن أيضاً ، بل ومحاولة تخفيف عذاباته المطهرية (على حد قول بعضهم) بالقداسات والصدقات التى يقدمونها عنه ، مما يخالف الكتاب المقدس جملة وتفصيلا وقد تنبه الكافة إلى ضرره وعدم جدواه حيث بدأ الاقرار الكتابى السليم يعود إلى الانتشار فيأخذ مكانته كما فى البداءة وهو : إن الاعتراف بالخطايا والتوبة عنها إنما يكون لله بحسب ما أمر به فى كتابه المقدس وهما الطريق الشرعى لنوال الخلاص الأبدى بدم يسوع المسيح .

تم بعونه تعـــالى

فهرس

كلمة تصـــدير ٣
الفصل الأول : القواعد السليمة للتفسير ٤
الفصل الثانى : منشأ متاهات التفسير ٨
الفصل الثالث : تقديس الوسائط وعبادتها ١٣
الفصل الرابع : بطلان العبادة النافلة ٢١
الفصل الخامس : جريمة مساندة الله ٣٢
الفصل السادس : السلطان الالهى للكنيسة أم للكتاب ٤٢
الفصل السابع : أثر متاهات التفسير على الخلاص ٥٣

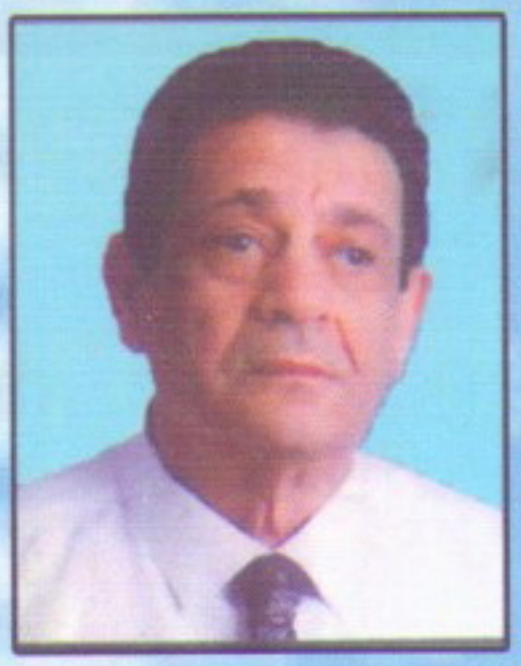

القس صموئيل مشرقى

توجد طرق مختلفة لتفسير كلمة الله وقد تزداد هذه الطرق وتصل إلى المتاهات والتيهان مما قد يؤدى احياناً إلى مذاهب منحرفة وضلالات فأعظم مفسر لكلمة الله هو كلمة الله نفسها والروح القدس يقوم بدوره فى الأرشاد والتعليم والإستنارة لكل الحق الكتابى فهو « مؤدبنا » أى الذى يحافظ علينا سالكين فى طريق النور وينير لنا الدرب الضيق الطويل ويقوم هنا الراعى الراحل القس / صموئيل مشرقى بالبحث و الدراسة عن بعض طرق التفسير ونحن نؤمن أن تفسير كلمة الله هو تفسير طبيعى (مثل أى نص أدبى) وحرفى (أى يقصد كل كلمة وقصصه حقيقية ما لم يقل لنا غير ذلك) ولغوى (يهتم بالمعنى الأصلى للكلمة فى اللغات الأصلية) وقرينى (أى يهتم بالقرينة القريبة والبعيدة) وأن كلمة الله لها سلطان مطلق ومعصومة من الخطأ فى لغاتها الأصلية (العبرية للعهد القديم واليونانية للعهد الجديد) وهى أنفاس الله التى أوحى بها للبشر وعرفنا من خلالها من يكون هو عز وجل؟! وماذا يريد منا؟! وما هو طريق الخلاص ؟! نصلى أن يستخدم الله هذا التراث الثمين لمجد اسمه وإمتداد ملكوته.